خوجا ابو البكا بن بهاء الدين ومحمود بن والي، مؤلف كتاب «بحر الاسرار» (وهو، بالمناسبة، من كاسان الفرغانية ايضاً). وينتمي سيد احمد بن سيد جلال الدين كاساني بنسبه بحسب سيد برهان كليتش (عاش في اوزغيند في ق - ١١م) الى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). وكان مخدومي اعظم كاساني، قد استدعاه إلى ميانكال جانبيك سلطان الشيباني (المتوفى عام ١٥٢٨م) وفي مطلع ق ١٦م ، انتقل إلى داخيدا التي اسسها هو، حيث عاش حتى آخر أيام حياته.

تتلمذ مخدومي اعظم كاساني على مولانا محمد قاضي (المتوفى عام ١٥١٥)، مؤلف ترجمة حياة خوجا احرار ذات الشهرة الواسعة والمعروفة بعنوان «مقامات خوجا عبيد الله احرار» (مارس - ابريل ١٤٠٤م - ١٤٢٠م فبراير ١٤٩٠م)، فسار في أعماله على خطى أستاذه في طريقة خوجاغان النقشبندية، التي أصبح زعيمها عام ١٥١٥م.

وبالاضافة إلى كونه زعيم الطريقة، فقد اشتهر مخدومي اعظم كاساني كعلَمٍ من اعلام علوم الدين، إذ وضع أكثر من ٣٠ كتاباً، كرست غالبيتها لطريقة خوجاغان النقشبندية، وأدب الدراويش وأخلاقهم وسلوكهم، والسبل إلى مبادئ الكمال الصوفية، وعلاقة العالم بالحكام، وسيرة حياة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) والاعمال التي قام بها الخلفاء الراشدون، والفقه (في الزواج). وتبحث هذه المؤلفات وتعطي البراهين والاثباتات حول بعض المسائل، مثل: الوجود الحقيقي لله وحده، أما الآخرون فمصيرهم الزوال والفناء، (و«رسائل الوجودية»، كل نفس ينبغي لها ان تشع «بالحب الحقيقي» («أدب الصديقين» «نصيحة الصالحين»)، إن أكمل صيغة لذكر الله - «لاإله إلا الله» («رسالة الذكر»)، الحياة الحالية بذور لحياة الآخرين («رسالة»)، الغوص في عالم الغيب الصوفي (رسالة)، الصوفي الحقيقي هو الذي تقترن أقواله بأعماله، ويكون قلبه وجسده على الطريق ذاته دائماً («مرشد السالكين»). وفي بعض مؤلفاته («رسالة بياني، سلسلة الصديقين») ترد سلسلات قصيرة خاطفة متتابعة لـ«شيوخ» طريقة خوجاغان النقشبندية. وكذلك شرح للمثل («الولد سر أبيه»، «رسالة تشهار كلام» و«رسالة بابريه») حيث يجري تفسير للآية

«طرق الحساب» و موسوعة في الجغرافيا وسير الحياة «خفت نامة» لأمين أحمد رازي ومؤلف موسوعي لمحمود بن والي «بحر الأسرار»، وكتب في الطب «طبائع الحيوان» و«المرشد في الطب» لسلطان علي، «بحث في الطب والصيدلة» لمحمد حسين السمرقندي وغيرها من المؤلفات. وتجدر الاشارة هنا إلى الدور المهم، الذي لعبته في تطور الطب دار الشفاء التي افتتحها سبحانقولي خان في بخارى، إضافة إلى دور شفاء (مستشفيات)، أخرى مماثلة في كبرى مدن الخانية الأخرى. وعاش في المدن الكبيرة (سمرقند، بخارى، طشقند) عدد كبير من الاطباء الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص، وكان منهم اطباء العيون، الامراض الباطنية، وتجبير العظام.

ما بين ق ـ ١٦ ـ ق ١٨، وضعت مؤلفات عدة في الدين والتصوف. وما تزال تلك المؤلفات تحظى بأهمية كبيرة حتى يومنا هذا، ونذكر منها على سبيل المثال: «رشحات عين الحياة» لعلي بن حسين واعظ الكاشفي (المتوفى عام ٩٣٩ ـ ١٥٣٢م)، «ثمرات المشايخ» الذي ألّفه، في عام ١٠٩١هـ ـ ١٦٨٠م، سيد زندا علي المفتي بن خوجا مير حسين البخاري، «اشجار الخلود» تأليف عام ١٧٢٦م، لمحمد أعظم، («سلسلاي خوجاغاني نقشبندية» ـ سلسلة نسب خوجات الطريقة النقشبندية ـ) لمحمد طاهر إيشان الخوارزمي (تاريخ التأليف ١٧٤٤م)، ويورد المؤلف سيرة حياة ٣٢١ شيخاً من شيوخ الطريقة النقشبندية.

تجدر الاشارة هنا، إلى الدور التنويري الكبير الذي لعبه زعيم شيوخ النقشبندية في ق ـ ١٦م، مخدومي اعظم كاساني وخليفته خوجا محمد إسلام، في الحياة الاجتماعية والسياسية لشعوب آسيا الوسطى.

مخدومي أعظم كاساني (١٤٦٢ ـ ١٥٤٢م): عالم دين بارز، وأحد أقطاب الطريقة النقشبندية. اسمه الكامل: سيد احمد بن جلال الدين كاساني، بيد أنه اشتهر باسم «مخدومي اعظم كاساني (أي السيد الاعظم من كاسان). أصله من كاسان الفرغانية التي كانت خاضعة لسلطة اخسيكيت وتابعة لأسرة السادة. ونقلاً عن «جامع المقامات»، كتبت سيرة حياة مخدومي اعظم عام ١٦١٧م من قبل حفيده،

(١٧٠٢ ـ ١٧١١م) احتل هذا المنصب محمد باكير خوجا وخانيم خوجا الجوبياري.

كان خوجا محمد إسلام في العشرين من عمره حين اصبح احد مريدي مخدومي اعظم، وامضى كثيراً من الوقت عنده في داخبيد، وشاركه في تجواله وسفراته، وازدادت شهرته بعد وفاة معلمه، وشغل مكانه بناءً على وصيته، وتزعم «طريقة خوجاغان النقشبندية».

وعندئذ جاء اليه مريدو مخدومي اعظم كاساناني كافة. كان خوجا محمد اسلام رجلاً ثرياً، وعلاوة على المبالغ النقدية والاشياء الثمينة المحفوظة لديه في الصناديق و المخازن بكميات كبيرة، كان يملك ٣٠٠ جوفتي غاو (٢٥٠٠ هكتار) من الاراضي في بخارى وسمرقند ونسف ومرو وطشقند والمناطق الأخرى، ١٠٠٠٠ رأس من الغنم و٧٠٠ رأس من الخيول و٥٠٠ جمل و١٠٤ من الورش والمحالّ التجارية، و٧ مطاحن، والعديد من الحمامات وخانات القوافل ... الخ.

وبعد خوجا محمد اسلام، خلفه في زعامة «طريقة خوجاغان النقشبندية» ابنه خوجا سعد («١٥٣١ ـ ١٥٣٢» ـ ١٥٨٩م).

ومن باب الانصاف والعدل، ينبغي القول إن علوم التاريخ والأدب والموسيقى كانت أكثر تقدماً وتطوراً إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين. وبلغَنا مما كتبه علماء آسيا الوسطى المؤلفات التالية في التاريخ: «تواريخ غوزيدي، نصرات نامة»، «زبدة العصر، كتابا «شيباني ـ نامة» (محمد صالح وكمال بنائي)، ميخمان نامي بخارى»، «تاريخ أبو الخير خان»، «شرف نامة شاهي» «بحر الاسرار»، «تاريخ مقيم خاني»، «عبيد الله نامة»، «تحفة خاني»، «محيط التواريخ» ومؤلفات أخرى كثيرة. ومن المذكرات وسير الحياة، المكتوبة في الفترة ما بين القرنين ١٦ ـ ١٨م، نذكر ما يلي: «واقعة بابورية» لظهير الدين محمد بابور، «بدائع الوقائع» لزين الدين واصفي، «مذكر الأحباب» لسيد بهاء الدين حسن نساري، «تذكر الشعراء» و«نسخة ظباء جها نغيري» لمطربي،«مذكر الأصحاب» لمحمد بديع سمرقندي، «جامع المقامات» لأبي البكا بن بهاء الدين، «روضة الرضوان وهداية الغلمان» لبدر الدين كشميري. «مطلب

١٨ من سورة الكهف من القرآن الكريم، الوصايا الأربع (تبصر، غض الطرف، رحلة (بالقلب) إلى الوطن والتأمل على انفراد) لعبد الخالق غيجدواني. وفي كتاب «زبدة السالكين وتنبيه السلاطين» يعطي المؤلف تفسيراً لحديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) بما معناه: إن افضل الحكام هم اولئك الذين يزورون العلماء، وأسوأ العلماء هم اولئك الذين يزورون الحكام.

ولا تزال المكتبات - في وقتنا الحاضر - تحتفظ بكثير من مؤلفات هذا العالم.

خوجا محمد اسلام (١٤٩٨ - ١٥٦٣): هو من الممثلين البارزين للجويباريين (نسبة إلى بلده جويبار الواقعة إلى الغرب من بخارى). تلميذ مخدومي اعظم الكاساني الآنف الذكر، ومساعده. في «روضة الرضوان وهداية الغلمان» لبدر الدين النقشبندي، نجد المزيد من تفاصيل سيرة حياة خوجا محمد اسلام وأخلاقه؛ يرجع بنسبه إلى علي بن ابي طالب (كرّم الله وجهه). ويعود بنسبه الروحي، إلى خوجا عبيد الله احرار، خوجا بهاء الدين النقشبندي، خوجا يوسف همذاني وابي يزيد البسطامي (المتوفى عام ٨٧٥هـ).

ولقد اتاح الحسب والنسب العريقان، الامكانية للشيخ الجويباري ان يشغل المناصب المهمة في الدولة منذ عهد السامانيين (٨١٩ - ١٠٠٥م). فشغل منصب نقيب النقباء، وشيخ الاسلام. وجاء مثلاً في كتاب «سعدية» لمير حسين السراخسي - تلميذ خوجا محمد اسلام - نسخة من رسالة الايلخان خلق - خان (١٢٥٦ - ١٢٦٥م) إلى الامام ابي بكر احمد، حيث اشير فيها إلى الأخير كنقيب نقباء؛ في حين يتحدث بدر الدين كشميري صاحب كتاب «روضة الرضوان» عن قيام جنكيزخان بالإنعام على أبي بكر هذا ببخارى كاملة. كان خوجا محمد إسلام وخليفته خوجا سعيد، قد شغلا منصب شيخ الاسلام في خانية بخارى في ق ١٦م. وفيما بعد في عهد امام قولي خان الاستراخاني (١٦١١ - ١٦٤٢م) ونادر محمد خان (١٦٤٢ - ١٦٤٥م) شغل هذا المنصب حسن خوجا وخوجا عبد الرحيم. وفي عهد عبد العزيز خان (١٦٤٥ - ١٦٨١م)، وسبحانقولي خان (١٦٨١ - ١٧٠٢م)، وعبيد الله خان

تشييد الكثير من المعابد والمساجد والمباني المختلفة مثل : مدرسة شيباني خان في سمرقند، وهي بناية فخمة مهيبة سقفها مطلي بالذهب؛ ومدرسة الصدر عبد الرحيم، وصوفا شيباني خان الرائعة في ريجيستان السمرقندية، ومسجد وجامع كالان الفخم، ومدرسة مير عرب، والمدرستين الكبيرتين اللتين بناهما عبد الله خان الثاني، مدرسة كوكيلتاش في طشقند، مدرسة شيردار وطلاقاري في سمرقند، مدرسة ومسجد نادر ديوانبيغي في خوجا كافشير، مدرسة عبد العزيز خان في بخارى، مسجد بالا ـ حاووز، ضريح كفال شاشي، في طشقند (بني ما بين ١٥٤١ ـ ١٥٤٥م)، وغيرها من البنايات والمنشآت الدينية.

أما فيما يتعلق بالمنشآت المدنية غير الدينية، فقد اقيم الكثير من خانات القوافل، والاسواق المسقوفة، مثل تيمي كالانا في بخارى، والعديد من آبار المياه على طرق القوافل الكبيرة. ومن منشآت الري ومشاريعه، نذكر محطة شيباني خان المشهورة، لتوزيع المياه والمقامة في زرافشان قرب سمرقند، وسد عبد الله خان الثاني المشهور، والواقع على اكتشاب ساي، بالقرب من نور ـ آتا، واعداداً كبيرة من القصور والحمامات والاقنية.

إن كل هذه الانجازات، تشير الى التطور الاقتصادي والثقافي في خانية بخارى، إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين.

خانية خيوة

أهم احداث التاريخ السياسي: في بداية عام ١٤٠٦م، خضعت خوارزم، مرة أخرى، للأورطة الذهبية. وقام شادي ـ بك بتعيين الأمير «آنكا» على خوارزم، وفي عهد فولادخان (١٤٠٨ ـ ١٤٠٩م) حكمها الأمير «كالجا». وفي الفترة (١٤١٠ ـ ١٤١١م) كانت السلطة في خوارزم لمبارك شاه، ابن ايديك اوزبك (يديغي) المشهور. وبعد ثلاث سنوات (عام ١٤١٤م) استغل التيموري شاهروخ استفحال الخلافات والنزاعات، وازديادها حدة في الاورطة الذهبية، واقام سلطة تيمورية في خوارزم. وباستثناء فترة قصيرة، أي فترة حكم الاوزبك الرحل وأبي الخيرخان (١٤٣١م)،

الطالبين» لأبي العباس محمد طالب صديقي الخ... وما تزال المراجع تحتفظ باسمي الشاعر الكبير والفيلسوف يوسف كارا باخي، والعالم الجليل والمشرّع ناصر الدين بخاري واضع «رسالة الإخفاء»، وأسماء أخرى كثيرة. وفي عام ١٥٨٧م، وضع درويش محمد بخاري، مؤلفاً فريداً من نوعه، في نظرية فن الخط.

إبان عهد الشيبانيين والاستراخانيين، تُرجم العديد من المؤلفات في التاريخ والادب إلى اللغة الاوزبكية (الطبري لرشيد الدين، شرف الدين علي يزدي ... الخ).

ومن ممثلي الادب الكلاسيكي نذكر: مشفقي سعيد نسفي، توردي، بيدل، نشراب، وغيرهم ممن تحظى ابداعاتهم بشعبية وشهرة واسعتين حتى يومنا هذا. ينبغي القول إن الحكام الشيبانيين والاستراخانيين قد أسهموا في الحياة الادبية إسهاماً فعالاً وخاصاً.

فمثلاً، لم يكن محمد شيباني خان وعبيد الله خان، يشجعان ويرعيان العلوم والآداب فحسب، بل كانا يجيدان نظم الاشعار، وقد تركا من بعدهما ديوان شعر (ديوان شعر شيباني خان «بحر الهدى» توجد نسخ عنه محفوظة في مكتبات تركيا وبريطانيا والمانيا).

في مدن خانية بخارى، ولا سيما في بخارى العاصمة وسمرقند وطشقند، ازدهرت فنون الخط والمنمنمات والرسم والتصوير. وكان من اشهر المبدعين في هذه الميادين: الخطاطون سلطان علي مشهدي، مير علي هروي، محمود شباهي، وخوجا يادغار، وفنانو المنمنمات: محمود مذهب والمصورون: جلال الدين يوسف، محمد تشاغري موسسي، محمد مراد سمرقندي، محمد نادر، محمد جهانغير، بابا نقاش وغيرهم.

كذلك نال فن الموسيقى قسطاً من التطور. ففي كتاب «شرف نامة شاهي» تكاد تصادفنا اسماء الآلات الموسيقية كافة، واسماء العديد من الموسيقيين، وفي ق ١٧م، كتب درويش علي بحثاً خاصاً في الموسيقى.

وفي عهد الشيبانيين والاستراخانيين تطور فن هندسة المدن تطوراً كبيراً، فتم

واورغينتش ولا تتجاوزهما، إذ كان القسم الاعظم من خوارزم، ولاسيما يانغي شهر، تيرساك، خرسان الشمالية، دورون، ومينغكيشلاك، قد وقع في أيدي سلطان غازي سلطان - حفيد بورك خان -! أما خيوة، خزراسب، كيات، بولدومساز، بينغيشكا، بغباد، نسى، «أبي ورد»، تشاخارديخ، ميخنا، وأبو لخان وديخيستان الواقعتان على أموداريا والمسكونتان بالتركمان، فتقاسمها أبناء اماناك خان الأربعة. وبعد مرور عدة سنوات توفي سفيان خان، وعندئذ تولّى العرش اورغينتش بـ «بوتشغا خان» - الابن الثاني لأماناك خان وشقيق سفيان خان.

وبعد بوتشغاخان، اعتلى العرش اوانيش - خان، الابن الثالث لأماناك خان الآنف الذكر. وفي عهده، بالتحديد، استولى الشيباني عبيد الله خان على خوارزم. وجرى ذلك - كما جاء في «أحسن التواريخ» لحسن بك رومل - عام ٩٤٤هـ، ١٥٣٨م. وابان ذلك قتل اوانيش وعدد كبير من أمرائه، أما الباقون الذين نجوا ومنهم محمد سلطان وعلي سلطان فهربوا إلى «دورون» قاصدين دين محمد خان، ابن اوانيش خان، وتبعهم ابنا اوانيش خان: يوسف ويونس. كما جاء في اثرهم «الى «دورون» » هاجم خان - ابن اكتاي خان. وفي العام نفسه، قصد دين محمد خان خراسان واحتلها بمساعدة التركمان. وفي طريقه انضم اليه ١٠٠٠ فارس من خيرة فرسان قبيلة «اراكلي». ونقلاً عن ابي الغازي، بلغ قوام جيشه ٣٠٠٠ مقاتل. في بادئ الأمر، احتل خيوة وخزراسب، وما ان سمع عبد العزيز سلطان بهذا النبأ، حتى ترك اورغينتش هارباً إلى بخارى. كما قام عبيد الله خان بإرسال جيش ضد دين محمد خان، على ان الأخير هزمه في موقعة «شيكاست قلعة».

قصارى القول، لقد استطاع، دين محمد خان الاستيلاء على خوارزم، آنذاك، لكنه اخفق في القضاء على التفتت الاقطاعي، كما أخفق في توحيد البلاد. وفي النزاع الدائر على السلطة، كانت كفة بولاد سلطان وتيمور - إبني اكتاي خان - هي الأرجح. يصف أبو الغازي، بولاد سلطان كرجل متهور حادّ الطبع، يفتقر الى عنصر المبادرة. وفي عهده اقتحم خان بخارى، عبد الله خان الثاني خوارزم، إلا أنه لم يستطع احتلالها، وعاد من يانغي اريك.

بقيت السلطة في البلاد خاضعة لدولة التيموريين حتى عام ١٥٠٥م. صحيح أنه في منتصف ق ـ ١٥م، كان الجزء الجنوبي الغربي من خوارزم، قد استولى عليه مصطفى خان، الذي كان قد هزم، قبل ذلك، على يد ابي الخيرخان على ضفة نهر «اتباصار» وهرب إلى مينغكيشلاك. ونقلاً عن خوندمير، قام آنذاك بالاستيلاء على اورغينتش، ورحّل قسماً من سكانها الى مدينة «وزير»، التي قام بإعادة بنائها، وهي تقع على بعد ٦٠ كلم غربي كوخنا ـ اورغينتش. في عام ١٤٦١م، انتقلت السلطة في خوارزم إلى احدى العائلات المحلية، ألا وهي عائلة الصوفية، والتي كانت تابعة، منذ العام ١٤٧٠م، للتيموري سلطان حسين ميرزا تبعية اسمية.

في عام ١٥٠٥م، كما سبق ان اشرنا آنفاً، وبعد حروب استمرت أحد عشر شهراً، سقطت خوارزم في قبضة شيباني خان. وبعد خمسة اعوام، وعقب وفاة هذا الخان في خريف ١٥١٠م، خضعت البلاد لسلطة الصفويين، إلا أن سلطة الكيزيلباشيين لم تدم طويلاً. ففي عام ١٥١٢م، تآمر الوجهاء الذين كانوا يمقتون الكيزيلباشيين، ووفقاً لخطة مؤامرتهم، استدعوا من منطقة دلتا امودريا اثنين من الأمراء الشيبانيين: ايلبارس سلطان وبيلبارس سلطان، ابني بورك سلطان الذي قتل في ثمانينات ق ـ ١٥م في اثناء حربه مع شيباني خان. استقبل الاميران (او السلطانان) في «وزير» بالخبز والملح، واعلن كلاهما خاناً؛ أما بالنسبة لأورغينتش وخيوة وخزراسب وكيش، فترتب إخضاعها بالقوة. ومع ذلك، لم يستطع الأخوان إقامة دولة ذات حكم مركزي. وظلت البلاد مجزأة إلى اقسام لا تربطها علاقات متينة. وسرعان ما دبت النزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، واشتدت حدة، ولاسيما بعد وفاة ايلبارس (في مطلع ثلاثينات ق ـ ١٦م).

أما عن الاوضاع في البلاد، فبالامكان ادراك ذلك، لدى معرفتنا توالي اربعة خانات، خلال فترة قصيرة جداً. فخلف ايلبارس خان سلطان حاجي ـ حفيد يدغار خان ـ الذي كان اولوساً في يانغي شهر. ولم يستمر حكمه سوى سنة واحدة (١٥٣٨ ـ ١٥٣٩م). وخلفه على العرش حسن قولي خان، ابن ابولاك خان، وجاء بعد هذا سفيان خان، اكبر ابناء اماناك ـ خان، إلا أن سلطته كانت تقتصر على «وزير»

لقد لحقت بالبلاد خسائر فادحة، ولاسيما من قبل قوزاق اليايتس. وكانت غارتهم الاولى على خوارزم قد شنت بعد مرور ٦ أشهر على حكم عرب محمد خان. ففي أيام الصيف القائظة، وحينما كان الخان خارج المدينة (في المصيف)، جاء نتشاي - زعيم القوزاق - على رأس ١٠٠٠ من القوزاقيين وهاجم خوارزم واحتل أورغينتش. وقاموا آنذاك - نقلاً عن ابي الغازي - بسلب المدينة ونهبها عن بكرة ابيها، وأخذوا معهم الأسرى من النساء والأطفال، وحرقوا البيوت والمدينة. ولم تمر عدة أسابيع على ذلك، حتى لحق بهم، على الطريق، فرسان الخان وهزموهم. كما انتهت حملتهم الثانية بالفشل، وعندئذ تزعمهم - زعيم القوزاق - الاتمان شاماي، ولدى إعادتهم الكرة هزموا مرة ثانية على شاطئ بحر الأرال. وسقط شاماي ورجاله في الاسر.

وفي آخر سنوات حكم عرب محمد خان. أعلن ابناه (حبش سلطان وايلبارس سلطان) تمردهما عام ١٦١٦م، وذلك بمساعدة النيمانيين والإيغور. وعندئذ منحمهما عرب محمد «وزير»، وهكذا أزيلت الخلافات. ولكن ما كادت تمر خمس سنوات، (عام ١٦٢١م) حتى اعلن الاخوان حرباً مكشوفة على ابيهما، هزم فيها عرب محمد خان، الذي أسر، ونقل إلى أورغينتش، حيث سجن، وفقد بصره، وتوفي بعد مرور وقت قصير.

لم يدم حكم حبش سلطان وإيلبارس سوى عامين. ففي عام ١٦٢٣م، قام اسفانديار سلطان، يدعمه الشاه عباس الاول، باحتلال خيوة واعتلى عرش والده، وحكم البلاد عشرين سنة (١٦٢٣ - ١٦٤٣م)، إلا أنه لم يستطع القضاء على الروح الانفصالية لدى الإقطاعيين، وعلى نزوات التركمان واستبدادهم. وإضافة إلى ذلك، انفصل اوزبك الأرال، واعلنوا استقلال الأرال. كما قام التركمان ايضاً بتعزيز استقلالهم، فضلاً عن استمرار النزاعات بين افراد الأسرة الحاكمة. وكان اوزبك الارال والتركمان هم الذين يدعمون أبا الغازي خان - احد المطالبين بالسلطة العليا - وفي عام ١٦٤٣م، أعلنوه خاناً.

تمكن هاجم خان (١٥٥٨ ـ ١٦٠٢م)، الابن الاكبر لأكتاي خان، من إخماد نار الحروب الداخلية والنزاعات التناحرية على السلطة لبعض الوقت، بيد أنه فشل في تعزيز وضع الحكومة المركزية. وأقام علاقات دبلوماسية ـ تبادل سفراء ـ وتجارية مع ايران وروسيا. في عهد هاجم خان ـ عام ١٥٧٥م ـ استغل عبدالله خان الثاني غياب هاجم خان عن البلاد (كان على رأس حملة إلى خراسان)، وقام، مجدداً، بمهاجمة خوارزم. وفي هذه المرة استولى على اورغينتش، بَيْدَ انه لم يتمكن من تثبيت أقدامه فيها؛ وعقد اتفاقية سلام مع أخويه (بولاد سلطان وتيمور سلطان)، وعاد إلى بخارى. ولم يستطع عبد الله خان بسط سلطته على خوارزم، إلا في المحاولة الثالثة التي قام بها (١٥٩٤م). وهرب هاجم خان إلى ايران والتجأ إلى الشاه عباس الاول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩م). أما أبناؤه (محمد سلطان، وعرب محمد خان ومحمد قولي سلطان) فاقتادهم عبد الله خان الثاني إلى بخارى. وفي عام ١٥٩٥م، أي بعد مرور سنة، قام هاجم خان وسلاطين خيوة، بمساعدة التركمان، وسكان بعض مدن خوارزم، بمحاولة لاستعادة البلاد، حتى إنه استطاع احتلال أورغينتش ومدن أخرى. إلا أن عبد الله خان سار مجدداً على رأس جيش وبسط سيادته ثانية على تلك المدن المحتلة. وللمرة الثانية هرب هاجم خان إلى ايران، كما أُعدم عددٌ كبير من قادة التمرد. ولم تمض فترة طويلة، حتى اغتنم هاجم خان وفاة عبد الله خان الثاني، واستعاد خوارزم التي ظلت تحت سيادته حتى وفاته عام ١٦٠٢م. يستدل بما ذكره أبو الغازي خان على أنّ الشاه عباس ساعده آنذاك في حروبه ضد عبد الله خان الثاني.

عقب وفاة هاجم خان، خلفه على العرش ابنه عرب محمد خان (١٦٠٢ ـ ١٦٢٨م) ـ والد المؤرخ المشهور، أبي الغازي خان ـ ومن الاحداث التي جرت في عهد عرب محمد خان، تشير المراجع إلى الغارات التي كان يشنها الكازاخ والكالميك وقوزاق يايتس على مدن وقرى خوارزم، واعمال السلب والنهب التي كانوا يقومون بها. وتشير المراجع ايضاً إلى ازدياد حدة النزاعات بين الاقطاعيين، وإلى الخلافات بين افراد الأسرة الحاكمة.

بخارى عليه، ولهذا الغرض، قام عام ١٧٠٠م بطلب دعم من روسيا. وردّاً على ما طلبه، تلقى من بطرس الاول وثيقة خاصة، يعبر فيها عن موافقته على منحه ومنح خوارزم حق التبعية لروسيا.

إبان حكم عرب محمد خان (١٧٠٢ - ١٧١٤م) وشير غازي (١٧١٥ - ١٧٢٨م)، وجدت خانية خيوة نفسها في ازمة سياسية حادة: ازدادت الحروب شدة بين الاوزبك والتركمان، وبلغ الانقسام والتفتت الاقطاعي ذروته، واوجه. أخذ الكازاخيون والكاليكيون يُصعّدون هجماتهم وغاراتهم على خوارزم، وبدأ الضغط الروسي عليها، فأرسلت روسيا عام ١٧١٤م حملة عسكرية بقيادة الأمير بيكوفيتش الشركسي (١٧١٤-١٧١٧م).

وفي عهد إيلبارس خان (١٧٢٨ - ١٧٤٠م)، خليفة شيرغازي، قام نادر شاه الايراني باحتلال خانية خيوة. أما ايلبارس، الذي هزم في موقعة خزراساب، فالتجأ إلى خانكي للاحتماء بأسوارها المنيعة، إلا أنه لم يصمد فيها طويلاً، إذ احتلت القوات الايرانية هذه المنطقة المحصنة بعد حصار قصير، واشتباكات قتل فيها إيلبارس. وعندئذ استدعى الخيويون إلى خوارزم الخان الكازاقي، أبا الخير، الذي كان حاكم «مالوجوزا» الكازاخية، واعلنوه خاناً عليهم. تذرّع أبو الخير بأنه من مواطني الامبراطورية الروسية (نال الجنسية او حق المواطنية الروسية عام ١٧٣٠ - ١٧٣٢م)، فحصل على موافقة نادر شاه على عقد معاهدة سلام، إلا أن خشيته من خبث الشاه ومكره، حملته على الفرار إلى السهب. وهنا احتل نادر شاه خيوة، وفرض سلطته على خوارزم.

لم تطل فترة خضوع خوارزم لنادر شاه. ففي عام ١٧٤١م استولى على الحكم في خوارزم نور علي - ابن أبي الخير الآنف ذكره - إلا أنه ما لبث أن فر إلى السهب، خوفاً من حملة نصر الله ميرزا - ابن نادر شاه في مرو ونائبه - ، ونتيجةً لخيانة وجهاء خيوة له. وقام نادر شاه بتعيين أبي محمد سلطان - ابن إيلبارس السالف ذكره - على عرش خيوة.

وفور اعتلائه العرش، قرر أبو الغازي خان (١٦٤٤ ـ ١٦٦٤م) التخلص من النفوذ القوي للتركمان، ولهذا الهدف قام برفع مستوى القبائل والعشائر الاوزبكية، ودعم وضعهم الاجتماعي والسياسي. وتعرض التركمان لاضطهاد عسكري وسياسي، كما حُرِموا من الأراضي والماء. وقام الخان بمنح مراعيهم واراضيهم للقبائل الاوزبكية المتحالفة في اتحاد الـ«كيات الكونغراتيين»، «الايغوار النيمانيين»، «الكانغلي الكيبتشاك» و«النكوز المانغيت». كما مُنِحَت المناصب الحكومية للقبائل الاوزبكية. باختصار، أُجبر التركمان على الانتقال حتى الحدود الحالية كتركمانيا الجنوبية. ومن الاحداث الأخرى التي جرت إبان حكم أبي الغازي خان: غارات الكاليك المتكررة على خوارزم، والنضال ضدها، تدهور العلاقات البخارية الخوارزمية، هجمات الخيويين المتكررة على خانية بخارى، واجتياحهم لمناطقها حتى بخارى نفسها وسمرقند. وبحسب المعطيات الواردة في المراجع، فإنّهم قاموا، فقط في عهد أبي الغازي، بالاعتداء على حدود خانية بخارى سبع مرات. ولم يكن هدف الخيويين السلب والاستيلاء على الغنائم الكثيرة والأسرى فقط، بل كانوا يسعون ايضاً إلى إضعاف قوة خانات بخارى في خوارزم، وضرب نفوذهم.

استمرت هجمات الخيويين وغاراتهم على ممتلكات بخارى وأراضيها، حتى في عهد انوشا خان (١٦٤٤ ـ ١٦٨٧م) ابن أبي الغازي وخليفته (آنذاك، استطاع انوشا خان احتلال جويبار، إحدى ضواحي بخارى. وفي عام ١٦٨٥م تمكن من الاستيلاء على سمرقند ايضاً. صحيح أن جيوش بخارى هزمته قرب غيجدوان، إلا أن خطورة تكرار هذه الهجمات ظلت قائمة. وهنا استطاع سبحانقولي خان، بمساعدة الفئات المناوئة لأنوشا خان في خيوة نفسها، الاطاحة بأنوشا خان، وبذلك وضع حداً لغارات الخيويين على الممتلكات البخارية، ولعمليات السلب والنهب التي كانوا يقومون بها. واعتلى العرش ارينغ (ارناك) ـ خان، ابن انوشا، إلا أن حكمه لم يدم إلا قرابة سنة واحدة: إذ قام سبحانقولي خان بتعيين شاه نياز ايشيك آغا باشي، أحد رجال الخان، حاكما على خوارزم.

لكن شاه نياز هذا (١٦٨٨ ـ ١٧٠٢م) سرعان ما حاول التخلص من وصاية

الكونغراتية، فقد استطاع إتمام عملية توحيد البلاد، وأجرى اصلاح نظام الضرائب، وموارد خزينة الدولة. وشن عدة حملات على خراسان، ومواقع التركمان الرُحل، ومخيمات الكازاخيين الرحل في حوض سرداريا، وعلى ممتلكات إمارة بخارى.

إبان حكم الله قولي خان (١٨٢٥ ـ ١٨٤٢م)، واصل الخيويون اجتياحهم واعمالهم التخريبية في خراسان، وجرت انتفاضة التركمين ـ ساريك، التي انضمت إليها القبائل والعشائر التركمانية الأخرى. لكن هذه الانتفاضة أخمدت وسحقت بصورة فظة قاسية.

وفي عهد خليفة الله قولي خان، رحيم قولي خان (١٨٤٢ـ١٨٤٥م)، استمرت العلاقات الخيوية البخارية في تدهورها. فمثلاً، عام ١٨٤٢م، اغتنم خليفة الله قولي وجود نصر الله خان (١٨٢٦ـ ١٨٦٠م) في بخارى، واعتدى على تشارجوي، وفي السنة التالية (١٨٤٣م)، اجتاح البخاريون حدود خوارزم، إلا أن الأمير نصر الله هزم في موقعة خزراسب. وفي سنة ١٨٤٤م حاول رحيم قولي خان، انتزاع محافظة مرو من بخارى، على انه فشل في ذلك.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ونظام الحكم

بسطت الخانية سلطتها على مساحات شاسعة ضمت خوارزم نفسها (حوض أموداريا السفلى)، ومنطقة جبال بلخ (أبو خان)، وديخيستان (مشهد ومسريان) والأراضي المحاذية لـ «اوغبو» والواقعة إلى الشمال منه، وسفوح كوبيت داغ شمالاً، وكوران داغ الداخلة حالياً ضمن تركمانستان وقسماً من تركمانيا. وكان سكانها يتألفون من الحرفيين والمزارعين التركمان الذين قطنوا جنوب البلاد وغربها، وزاولوا، بصورة رئيسية، رعاية الماشية. ومن الاوزبك الداشتي كيبتشاك، الذين جاؤوا إلى خوارزم في مطلع ق ـ ١٦م، وما لبثوا ان تحضروا.

كانت خوارزم، ولاسيما الواحات، بلاداً ذات ثقافة رفيعة. فمنذ عهد أبي الغازي خان، وفي عصر التفتت والانقسام الاقطاعي، كانت المدن حسنة التنظيم، كثيرة العدد مزودة بأسباب الراحة إلى حد ما، نذكر منها على سبيل المثال: وزير، تيرساك،

وفي عهد هذا الخان ايضاً، لم تتوقف النزاعات بين الاقطاعيين في خانية خيوة. وفي عام ١٧٤٧ أُعلن خاناً، إقطاعي يدعى «كاين» (١٧٤٧ ـ ١٧٥٧م)، كان واحداً من التكتلات الاقطاعية الكازاخية المعادية لابي الخير و نور علي. وقد بدأ حكمه بعزل المسؤولين الذين لا يلائمونه، وبالدرجة الاولى، زعماء القبائل الاوزبكية والأتاليك العظيم المرهوب الجانب خروزبك، ثم قام بفرض ضرائب باهظة. إلا أن هذه التدابير لم تمكنه من تعزيز وضعه في البلاد. وفي عام ١٧٥٧م، هب الشعب الساخط، حاملاً السلاح، وخلع «كاين» عن العرش. وشغل مكانه عبد الله ـ شقيق الخان المخلوع ـ . على ان الشعب لم يذعن له، واستنجد بحاكم بخارى ـ محمد رحيم خان ـ المانغيتي. اطيح بعبد الله، وقام محمد رحيم خان وأجلس على العرش تيمور غازي خان، الذي كان احد أذنابه وصنائعه، الذين توالى عدد منهم على العرش خلال الفترة من ١٧٥٧ـ١٧٦٣م.

وفي عام ١٧٦٣ انتقلت السلطة في خانية خيوة إلى ايدي الايناكيين المنتمين الى قبيلة كونغورات الاوزبكية ذات النفوذ، والذين يحظون بدعم التجار ورجال الدين المسلمين. وكان محمد أمين اول حاكم من هذه الأسرة (١٧٦٣ ـ ١٧٩٠م)، فلم يعلن نفسه خانا، وادار دفة الحكم باسم الخان الصوري. ورغم ذلك كانت السلطة الفعلية بأسرها في يد الايناكي والكوشبيغي واليختار ذوي النفوذ العظيم. كما استطاع محمد أمين القضاء على الإقطاعيين المتمردين، وصد بنجاح هجمات التركمان (عام ١٧٧٠م) والبخاريين (عام ١٧٨٢م) وأعاد إعمار القرى والأرياف، التي هجرها سكانها ايام الاضطرابات. باختصار، في عهد هذا الحاكم، ساد الاستقرار، وأحرزت البلاد شيئاً من التقدم والازدهار.

في عهد إيلتوزارخان (١٧٩٠ ـ ١٨٠٦م)، انتقلت السلطة كاملة إلى الإيناكيين بعد أن أزاحوا من طريقهم الخانات الصوريين. واعتباراً من عام ١٨٠٤م، بدأت فترة الحكم الفعلي لأسرة الكونغراتية. وواصل ايلتوزار النضال، الذي بدأه محمد امين لتوحيد البلاد، حتى إنه قام بغزو بخارى (١٨٠٤م).

كان محمد رحيم خان الاول (١٨٠٦ ـ ١٨٢٥م) من ابرز ممثلي الأسرة

المراجع الوثائقية ـ كانت منتشرة جميع انواع الملكية الاقطاعية للاراضي: الحكومية («مملكة، ملكي سلطاني» او «باديشا ـ هليك»)، الملكية الخاصة («ملك»)، ملك الاوقاف والملكية المشاعية.

الاراضي الحكومية: على العموم، كان الذين يشتغلون فيها من الفلاحين المحاصصين، وكانوا مجبرين على التخلي عن القسم الاعظم من المحاصيل وفقاً لتحديد المشرف الحكومي، وعلى دفع ضريبة استئجار الارض. كانت الدولة تعطي قسماً من اراضيها للفلاحين الذين يفلحونها، ويعود إنتاجها إلى الأمراء وكبار المسؤولين، ولقاء الخدمات الجليلة التي يقدمونها للعرش، كان قسم من هذه الأراضي يعفى من الضرائب. وهكذا كان لقسم من أراضي الحكومة طابع الملكية المجزأة، أي انها كانت بتصرف الحكومة التي تجمع الضرائب المفروضة عليها، وتدفع ضرائب الايجار للاقطاعيين، في حين يفلحها (ويملكها بالوراثة) صغار الفلاحين.

الملكية الخاصة: كانت الأراضي من حيث مساحاتها كبيرة وصغيرة. وكان كبار الملاكين، وكما هو مألوف، ينعمون بالرفاه. وشأنهم شأن ما تفعله الدولة، كانوا يستغلون اراضيهم معتمدين على الفلاحين المحاصصين، ويستولون بمختلف السبل على افضل الأراضي التابعة ملكيتها للآخرين، ولا سيما اراضي صغار الملاكين، ومن ثم يجرون صفقات مع الدولة، تعفى بموجبها هذه الأراضي من الضرائب والخراج.

كان كبار الملاكين يتألفون من رجال الدين الاقطاعيين، ومن المؤسسات الدينية: المدارس الدينية، المساجد، مساكن الدراويش (خانا كاخ)، ومزارات الاولياء. وجاء في ارشيف خانات خيوة أن أملاك الأوقاف كانت تشكل زهاء ٤٠ ٪ من الاراضي المروية في الخانية، وهي جميعاً في تصرفهم. وكانت اراضي الأوقاف تفلح أيضاً وتستغل بواسطة الفلاحين المحاصصين.

أما كبار الاقطاعيين، ورجال الدين، فيستخدمون العبيد في فلاحة اراضيهم

يانغي شهر، بولدومساز، باغاباد، كيات، دارون، كومكينت، ميزداهقان، دراوغان آتا، بكيرغان، خاص منارا، تشيليك ... الخ. كذلك كانت المنطقة الشاسعة الممتدة من أورغينتش وحتى ابول ـ خان جيدة التنظيم. آنذاك يقول ابو الغازي خان: «كان الذهاب من أورغينتش إلى ابول ـ خان (ابو خان) كالذهاب من قرية إلى أخرى، ذلك بأن نهر امودار يا كان، آنئذ، يمر بسفح قلعة اورغينتش، متجهاً إلى الطرف الشرقي لجبال ابول خان، ولدى اقترابه من سفوح الجبال، كان يتجه من الجنوب الغربي إلى الغرب، ويصل إلى اوغورتشا ومن ثم يصب في بحر مازنداران (القزوين). «وهذه معلومات جديرة بالاهتمام اوردها المؤرخ:» على ضفتي النهر (من اورغينتش) حتى اوغورتشا، كانت الاراضي الخصبة المزروعة بكروم العنب، والاشجار المثمرة. على الاماكن العالية والمرتفعات، كانوا يشيدون الـ «تشيغيري». وفي موسم كثرة ذباب الخيل والبعوض، كان الناس يقصدون الآبار، الواقعة على بعد مسيرة يومين تقريباً، ولدى اختفائها ـ أي ذباب الخيل والبعوض ـ كانوا يعودون إلى ضفاف النهر. لم يكن للازدحام السكاني والازدهار حد في هذه المنطقة من بيشغال إلى منطقة كارا ـ كيتشيت، كانت كلتا ضفتي النهر مأهولة (بقبائل) الـ «اواكلي» و«خضر يدي»، ومن كاراكيتشيت حتى الاطراف الغربية لجبال ابول خان كانت مأهولة بقبائل آلي ايلي، ومن هناك وحتى مصب النهر في البحر (بحر القزوين) كانت شعوب تيواتشي».

ويستدل من هذه الأقوال المقتطفة، أن الاوزبك ليسوا وحدهم الذين كانوا يعيشون حياة الحضر، بل طالت حياة الحضر جزءاً من التركمان ايضاً.

يستدل بما اورده أبو الغازي في «شجري ترك»، على المستوى العالي للتطور في ميادين الزراعة والحرف اليدوية، والبستنة، وزراعة الكروم والفاكهة والخضروات. وبحسب المعلومات الواردة في المراجع، كانوا يزرعون الحبوب، ولاسيما القمح والعنب والخضر وغيرها من المحاصيل الزراعية. كذلك تطورت تربية دودة القز.

وفي خانية خيوة، وكما هو الأمر في سائر خانيات آسيا الوسطى، ـ نقلاً عن

حفرت اقنية جديدة لجلب المياه من اموداريا، واقيمت سدود وشبكات ري على نهر اموداريا وترعه.

اما فيما يتعلق بالصناعات اليدوية والتجارة في الخانية خلال المرحلة التي نحن بصدد دارستها، فبإمكاننا القول ان الصناعات اليدوية في العديد من مناطق خوارزم لم تكن قد انفصلت بعد عن الزراعة. اضافة إلى ذلك، كانت أشكال الاستعباد والاستغلال الجائرة سائدة، وكان الحرفيون البسطاء في مدن خوارزم، ينتجون الحرير والقطن والأقمشة شبه الصوفية ويصنعون منها الملبوسات. فمثلاً، في بخارى وخيوة، رأى ف. يفريموف «كميات كبيرة من الحرير، الذي كانوا ينسجون منه الاقمشة المقصبة المطرزة بالذهب والفضة، وأقمشة الاطلس والمخمل، والقطنية المزخرفة الموشاة بأعشاب ذهبية، وانواعاً أخرى مختلفة من الأقمشة، لكنها ليست عالية الجودة.

تشتهر هذه المنطقة بوفرة القطن، الذي ينسجون منه البراقع والخيش العريض، ويصنعون منه عندنا البفت، والشاش، والكتان الخشن الملون، والبفت غير الملون، وطرحة العروس، والاقمشة القطنية الغليظة، وغيرها من الاقمشة التي ترسل إلى البلدان الأخرى».

كذلك كانت تصنع في خوارزم المصنوعات الأخرى، كالدروع والخوذ وادوات العمل (الفؤوس، المعاول، المحاريث)، إضافة إلى الصناعات الفخارية.

كانت تجبى من السكان الضرائب التالية: علاوة على الخراج (الذي كان يدفع نقداً او عيناً)، كان السكان يدفعون الزكاة (ضريبة الاملاك والماشية وتساوي ١/ ٤٠ من الدخل)، «والجدل» (ضرائب استثنائية تدفع للأعمال الحربية) والـ «باج» (ضريبة التجارة)، و«نوكيرليك»(الخدمة العسكرية في الحرب)، الـ «كازو» (التعبئة الاجبارية للسكان لتنظيف منشآت الري وبنائها)، الـ «كاتشو» (تعبئة اجبارية للقادرين على العمل للمشاركة في إقامة السدود)، الـ«كافصان» (تخصيص جزء من المحاصيل لإعاشة عمد القرى ومراقبي توزيع المياه) وهَلُمَّ جراً.

نظام الحكم في خانية خيوة: رئيس الدولة هو الخان، الذي يتحكم بمصير

وزراعتها. وهؤلاء هم أسرى الحروب من الروس والايرانيين والنوغاي والكاليك، وغيرهم من الذين أسروا في أثناء الغزوات، والذين كانوا يباعون في أسواق خوارزم.

أما فيما يتعلق بالاراضي المشاعية، فكانت تشكل المراعي العامة، وتعود ملكيتها للجميع.

كما هو معروف، فإن الزراعة في آسيا الوسطى كانت تعتمد منذ القدم على الري الاصطناعي. وانطلاقاً من ذلك، كان المزارعون والحكام يولون عناية دائمة شبكات الري: يصلحون منشآت الري القديمة، ويقيمون المنشآت الجديدة. وفي منتصف ق ـ ١٦م، جفّ «دير ياليك» أحد فروع دلتا امودايا الرئيسة، الذي كان يصب في بحيرة «ساريكاميش»، وبقي العديد من مناطق خوارزم بلا ماء، ومن ضمن هذه المناطق: مدينة «وزير» واورغينتش. وفي عام ١٥٧٨م، تغير مجرى نهري امودايا وسرداريا، اللذين كانا يصبان في بحر القزوين، ما ألحق خسائر فادحة بزراعة البلاد. وإليك ما يقوله في هذا الصدد محمود بن والي في كتابه «بحر الاسرار»: «كان نهر «أمويا»، المعروف (ايضاً) بنهر بلخ، خوارزم وجيحون (سابقاً) يمر بالقرب من اورغينتش القديمة. ويصل حتى الاطراف الشرقية لجبال بلخ، منعطفاً إلى غرب القلعة (المقامة على بالخان)، كان يصل إلى اغورتش، ومن ثم يصب في بحر مازندران، حيث تصب مياه الخليج المعروف ايضاً باسم «كوك اوزين». في عام ٩٨٦هـ، ايام هاجم خان (١٥٦٢ ـ ١٦٠٢م) شق نهر «امويا» لنفسه مجرى في اعالي مدينة «خاص مينار» وخلال ادغال «كارا ايغير»، مروراً بقلعة «توك»، غير مجراه السابق». وذلك ما يقوله ايضاً ابو الغازي خان. لذا، وبحسب قول عرب محمد، بذل حكام خيوة جهوداً عظيمة للعناية بمنشآت الري وتطويرها. فمثلاً، في عهد علي سلطان (١٥٥٨ ـ ١٥٦٧م)، تم حفر قناتي «يانغي اريك» و «تاشكي يارميش»، وفي عهد عرب محمد خان شقت قناة قرب قلعة «توك»، كما قام ابو الغازي خان، في بداية حكمه، ببناء اورغينتش الجديدة، وأسكن فيها ما تبقى من سكان «وزير» واورغينتش القديمة. وفي ستينات وسبعينات ق ١٨م، كانت قد

اجدادنا، وحتى يومنا هذا. ولذا بذلت ما بوسعي لإيجاد من يكتب مثل هذا التاريخ، ولما اخفقت في العثور على شخص أهْلٍ لذلك، اتبعت المثل التركي القائل: «اليتيم هو قابلة نفسه - أي حينما يولد، يولد بلا قابلة، فيكون هو الوليد والقابلة في الوقت نفسه «المترجم» - وقررت كتابة تاريخ اسرتي بيدي.» اجل، حقاً انّ أبا الغازي خان قد أسهم بقسط كبير في تطوير علم التاريخ. وترك للاجيال اللاحقة مؤلفين: «شجرئي ترك» (١٦٦٨م) و «شجرئي تراقيم» (ألفه على وجه التقريب في عام ١٦٥٨ - ١٦٦١م)، ويعدان من المصادر التاريخية الهامة القيمة. إن العمل الذي بدأه أبو الغازي خان واصله مؤنس (١٧٧٨ - ١٨٢٨م) واغاخي (١٨٠٩ - ١٨٦٤م)، إذ وضعا مؤلفاً رائعاً بعنوان «فردوس الاقبال»، الذي ضمَّناه تاريخ خانية خيوة ق ١٦ - ق - ١٨م.

خانية خوقند

كما اشرنا آنفاً ، في عام ١٧٠٩م، انفصلت فرغانة عن خانية بخارى، مكونة دولة مستقلة، دخلت التاريخ باسم خانية خوقند.

أهم الاحداث السياسية: يعتبر مؤسس هذه الخانية شاهروخ بي (١٧٠٩، ١٧٢١ - ١٧٢٢م)، من قبيلة مينغ الاوزبكية. كان ينتمي إلى الطبقة المتوسطة من الاقطاعيين. اقتصرت الممتلكات الخاضعة لسلطته آنذاك على قرى تارغاوا وجوماش بي، يانغي كينت، بالاخان، توكاي تيبا، بارتاك وتيبا كورغان الخ. أما فيما يتعلق بالأحداث التي جرت في عهده، فلم يرد لها ذكر في المراجع، سوى ما جاء في «تاريخ شاهروخي» عن بناء حصن ايسكي كورغان غير الكبير.

أما أهم الاحداث التي وقعت ابان حكم عبد الرحيم بي (١٧٢٢ - ١٧٣٣م) ابن شاهروخ بي وخليفته، فإن المراجع التاريخية تشير إلى إخضاعه خوجند (١٧٢٥م) واوراتيوبا(١٧٢٦م) واخضاع سمرقند له مؤقتاً (عام ١٧٣٢م)، وإلى تحالفه مع كينيغيسي شهرسابز ضد الاستراخانيين، منتهزاً صعوبة الاوضاع الداخلية.

الشعب. ثم يليه الأناك ـ كان كبير المسؤولين حتى ق ـ ١٩م ـ الشخصية الثانية بعد الخان، او ما يسمى بالممثل المفوض. يليه «الكوشبينغ» المسؤول عن شؤون السكان الحضر كافة في الجزء الجنوبي من خوارزم. أما السكان الرحل و(الكازاخ، التركمان، الكاراكالباك) فكان يدير شؤونهم شيوخ وزعماء القبائل او العشائر ـ البايات، البكوات، الوكلاء. وكان يلي الكوشبيغ المختار الذي كان يشرف على السكان الحضر في شمال الخانية. اما إدارة شؤون المدن، فكانت في ايدي الحكام وقادة المئة (يوزباشي). فيما يشرف الكادخودا على ادارة أمور القرى. كانت السلطة القضائية في المركز والولايات والمناطق الأخرى بيد القضاة (وكان قاضي القضاة او كبير القضاة يعرف بـ«قاضي كاليان»). وكان يشرف على تطبيق تعاليم الشريعة من قبل المواطنين، مسؤول يعرف بـ«رئيس» (وكان يسمى ايضاً بـ«محتسب»)؛ أما السلطة السياسية، فكانت بيد الـ «مشراب».

العلم والثقافة: كانت الثقافة والعلوم ـ في هذه المرحلة التي نحن بصددها ـ في حالة انحطاط وتخلُّف. ولا يمكن مقارنتها، مثلاً بما انجز في هذا الميدان في خانية بخارى ابان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، وفي خانية خوقند ايام اسرة المينغ. من المنشآت والابنية الاثرية في مدن خانية خيوة في الفترة ما بين ق ١٦ ـ ق ١٨م، نذكر مدرسة عرب محمد خان (عام ١٦١٦م) الاسلامية والمسجد الواقع إلى جنوب المدرسة المذكورة، والمسجد والحمامات التي انشئت ايام انوشا خان، والمدرسة المؤلفة من طابقين والمبنية في عهد شير غازي خان. لقد كانت العلوم متخلفة، فمثلاً لم يكتب أي مؤلف تاريخي حتى مجيء ابي الغازي خان إلى سدة الحكم. ويرى ابو الغازي أن سبب ذلك يكمن في عدم وجود تشجيع ورعاية للعلوم، من قبل الخانات والسلاطين وكبار الاقطاعيين.

وكتب في هذا الشأن: «نظراً لعدم توافر الرعاية للعلوم من قبل اجدادنا واقربائنا، ونظراً لجهل الشعب الخوارزمي، لم تكتب مؤلفات تاريخية عن الحكام من اسرتنا، منذ انفصال عبد الله خان (عبد الله خان الثاني الشيباني ـ ب. أ) عن

١٨١٠م) وعمر خان (١٨١٠ ـ ١٨٢٢م). في البداية ـ وكما جاء في هذا الصدد في كتاب «تاريخ شاهروخي» ـ قام بتعزيز الجيش والتخلص من المسؤولين الذين لايرتاح لهم (بير محمد باسولا، طاشمحمد ميرزا وحاجي بيك وغيرهم)، والقضاء على الفتن، وإخضاع أورا تيوبا (١٨٠٠م) وطشقند (١٨٠٩م) وتشيمكينت (١٨٠٩م). قتل عليم خان عام ١٨١٠م في مؤامرة دبرتها ضده الارسطقراطية الخوقندية القديمة، بمشاركة ممثلي رجال الدين المسلمين.

في عهد عمر خان (١٨١٠ ـ ١٨٢٢م) وابنه محمد علي خان (١٨٢٢ ـ ١٨٤٢م) بلغت خانية خوقند اعلى مستوى من التطور، إذ اتسعت مساحتها، وقوي جهاز الدولة، وساد الأمن والاستقرار البلاد إلى حد ما، وتطورت العلوم والثقافة.

أما عن التوسعات والمكتسبات الاقليمية للخانية، فإن المعلومات الواردة في المراجع تفيد بنه في عام ١٨١٨م أعيد ضم اوراتيوبا إلى خانية خوقند، ثم ضمت اليها كوراما، كاراتيغين، وداروز (١٨٨٨م). وفي عام ١٨٢١م تحرك الجيش الخوقندي حتى سيميريتشي. وقبل ذلك (أي عام ١٨١٣ ـ ١٨١٥م) كان قد تم اخضاع جانك على ضفة امودايا وعدد من المناطق الواقعة على نهر تالاس وتشومغ ألاي ووادي تشوي، حيث شيدت منشآت آل ميتشيت، تشولاك كورغان، اوليا آتا، أولوغ كورغان، داراوت كورغان، ميركي، كارابالتا، بيشكيك، توكماك والخ... وشرقاً بين أوش وكاشغار، شيدت صوفي ـ كورغان وكيزيل كورغان.

ومن الأحداث الأخرى، تشير المراجع التاريخية إلى اجتياح القوات الخوقندية كاشغار مرتين (١٨٣٠ و ١٨٣١م)، وكان محمد علي خان قد شارك شخصياً في الاجتياح الثاني، وتم ،آنذاك، استرجاع كاشغار وقلعتها الرئيسة «جولباغ» من الصينيين. وبعد مرور خمسة عشر يوماً أجلس محمد علي خان على العرش جهانغير خوجي، تاركاً لديه خاكوكي مينغباشي، وعاد الى خوقند. وبموجب الاتفاقية التي وقعت بين الإدارة الصينية التسينغية وخانية خوقند، تعهد الصينيون بألا يضعوا العراقيل في طريق تجار آسيا الوسطى خلال تجارتهم في تركستان الشرقية، وبمنح عمد خوقند حق فرض الضرائب (زكاة وباج) على التجارة في أسواق كاشغار.

خلال حكم عبد الكريم خان (١٧٣٣ ـ ١٧٥٠م)، أُعيد إعمار مدينة خوقند وتحصينها بالاسوار. ومن الاحداث الأخرى التي حصلت إبان حكم هذا الحاكم: هجمات الكاليك (الجونغار) المتكررة على حدود خانية خوقند في الفترة من ١٧٤١ ـ ١٧٤٥م.

وفي تصدّيه لهؤلاء، اعتمد عبد الكريم خان على مساعدة القيرغيز والكيبتشاك، ولا سيما «فاضل بي»، حاكم خوجند. كما توجب عليه محاربة الاقطاعيين الكيبتشاك، الذين أعلنوا شيغاي (ابن باراك ـ حاكم «جوز» الوسطى) خاناً على البلاد (نهاية ق ـ ١٨م)، وصد الهجمات التي شنت على المناطق المحيطة بقرية خوقند. وتجدر بنا الاشارة أيضاً، إلى تدخله في الصراع الدائر في خانية بخارى. فمثلاً، جرد (في عام ١٧٤٥م) حملة عسكرية على ميانكال حينما تمرد خيطاي الكيبتشاك. وبعد سنة (١٧٥٢) عاد إلى السلطة ايردانا بي السالف ذكره.

وفي زمن ايردانا بي (١٧٥٤ ـ ١٧٦٢م) اكتسبت خانية خوقند، بصورة نهائية، شكل دولة كاملة متكاملة. أما عن احداثها السياسية الرئيسة في عهد هذا الخان، فباستطاعتنا ذكر حملته على اورا تيوبا، بالتحالف مع أمير بخارى، محمد رحيم، والاقطاعي القيرغيزي «كاواد بي» عام ١٧٥٤م. إلا أن الحملة فشلت بسبب خلافات دبت بين المتحالفين، بل انها منيت بالفشل. ولكن، رغم ذلك، نجح ايردانا بي في إخضاع «إسفاري» و«أوش» في بداية الستينات، كما إنه حاول إخضاع خوجيند، ولكنه مني بالفشل، وسرعان ما قام حاجي بي باسترداد «اوش» منه. ومن أهم الأحداث في زمن حكم ايردانا بي، تبادل السفراء مع الصين التسينغية.

بعد ستة أشهر من حكم سليمان خان ـ حفيد شاهروخ بي ـ أجلس على العرش كارابوتا خان (١٧٦٣ ـ ١٧٩٨م)، ابن عبد الرحمن خان وله من العمر أربع عشرة سنة. ومضت اعوام حكمه، وهو يحارب أخاه المتمرد خوخي بي، والقيرغيز؛ ويكافح الحكام المحليين الانفصاليين، ليسحقهم في تشوست ونامنغان، وأماكن أخرى.

لم يستطع توحيد فرغانة وتنظيم جهاز الدولة فيها، سوى عليم خان (١٧٩٨ ـ

الدجوغارا والدخن والشعير، وزرعوا في مساحات شاسعة القطن والفصفصة. كذلك كانوا يزرعون بساتين كثيرة، من الكروم، والتفاح، والبرقوق، واللوز، والكرز، والاجّاص، والرمان، والدراق، والمشمش، والتين. إضافة إلى القرعيات؛ كالبطيخ بنوعيه الاصفر والاحمر واليقطين، والخضروات كالبصل والجزر والخيار... الخ.

وهنا، وكما كان يحصل في سائر خانيات آسيا الوسطى، سادت جميع انواع الملكية الاقطاعية للاراضي، وهي: ملكية الدولة والملكية الخاصة والاوقاف والمشاعية. وكان اكبرها: ملكية الدولة والاوقاف، يعمل فيهما ويعيش عليهما الفلاحون. وكان اصحابهما واصحاب الاملاك الخاصة والاقطاعية يملكون، علاوة على الأراضي ومصادر المياه، خانات القوافل، ومحالّ الحرف اليدوية والمحالّ التجارية والمطاحن والمجارش والحمامات وغيرها من المنشآت المدرّة للأرباح. أما في حال زيادة مساحات الأراضي الحكومية، فإن الزيادة كانت تتم على حساب استصلاح الأراضي الجديدة والشراء والبيع، وأما توسع الأراضي الاوقاف، فكان يتأتّى من التبرعات.

لقد أدّى التحضر والاستقرار الجماعي للرحل (القيرغيز والكيبتشاك) إلى تطوّر المدن. وفي نهاية ق ـ ١٨ وبداية ق ـ ١٩م، برزت أمام الحكومة مهمة جديدة هي ضرورة تطوير شبكات الري وتوسيعها. وهكذا، جرى في نهاية ق ـ ١٨م تنفيذ مشروعي قناة انديجان ـ ساي وشهريستان ـ ساي للحصول على المياه من أموداريا، وعلى ضفتي هاتين القناتين اقيمت مستوطنات مختلفة كبيرة وصغيرة، مثل: سلطان اباد ومعمور اباد وشهريخان... الخ. وفي تلك الفترة بالذات، بوشر بتطوير شبكات الري في المنطقة الواقعة بين نهري «نارين» و«كاراداريا»، والمعروفة باسم «ايكي سوو اراسي»، التي تعني «ما بين النهرين»، والتي كانت مشهورة بوفرة ينابيعها، وتعود ملكيتها لقبائل الكيبتشاك المتحضرة. وفي عام ١٨٣٦م قام الحاكم الخوقندي المؤقت «مسلمانقول» بحفر قناة من نهر تاشبتشان ـ ساي، وخلال فترة قصيرة جداً، استطاع استصلاح ٢٧٠٠ «تابان» من الأراضي الجديدة. وفي فرغانة المركزية، قام هذا الاقطاعي بشق قناة لإيصال المياه من أموداريا، لاستصلاح أراض

في تلك الأثناء، دبت الحيوية مجدداً في العلاقات التجارية الخوقندية ليس مع الصين فحسب، بل مع تركيا وروسيا والبلدان الأخرى.

انهارت سلطة محمد علي خان، نتيجة استياء غالبية وجهاء خوقند من محمد علي خان شخصياً، الذي انغمس في اللهو والترف في نهاية حكمه ولم يعد يهتم بشؤون البلاد كما ينبغي. فاتصل قسم من الوجهاء بأمير بخارى، نصر الله خان (١٨٢٦ ـ ١٨٦٠م)، وطلبوا منه المجيء للاستيلاء على خوقند ، وفي ابريل ١٨٤٢م، جاء الأمير نصر الله على رأس جيش جرار، واجتاح فرغانة، واستولى على خوقند بعد حصار ومعارك قصيرة لم تدم طويلاً.

لكن سلطة الأمير البخاري على خانية خوقند، لم تدم سوى شهرين ونصف الشهر. ففي شهر اغسطس ١٨٤٢م، وبمساعدة المتمردين الاوزبك والقيرغيز والكيبتشاك، تولى العرش شير علي خان (١٨٤٢ ـ ١٨٤٤م)، ابن شقيق ناربوت ـ بي. إلا أنه لم يستطع ان يعيد إلى البلاد ازدهارها السابق. أما في زمن خودايار خان (١٨٤٤ ـ ١٨٥٨، ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣، ١٨٦٥ ـ ١٨٧٥م) و«مالاخان (١٨٥٨ ـ ١٨٦٢م)، فقد وقعت خانية خوقند فريسة النزاعات بين الاقطاعيين، ودسائس القصر ومكائده، والثورات والانتفاضات الشعبية، ما أدى إلى أفول نجمها، فاستغلت روسيا ذلك وفرضت سلطتها الاستعمارية على فرغانة (٢٢ سبتمبر ١٨٧٥م).

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ونظام الحكم في خانية خوقند

كان النشاط الاقتصادي للسكان مرتبطاً بالظروف الطبيعية. وكما هو معلوم، فإن تضاريس وادي فرغانة الطبيعية تتألف من الجبال والسهول، حيث تتوافر المياه والمناخ الجيد. ففي المناطق الجبلية والسهوب، كانوا يزاولون تربية الماشية، أما في الأراضي السهلية، فكانوا يمارسون الزراعة والبستنة.

وكان سكان القرى والأرياف (الاوزبك والطاجيك) يزرعون القمح وحبوب

هذا الصدد هو مجرد معلومات عامة.

كانت السلطة بأسرها في يد الخان، الذي يقرر مصير الشعب والبلاد، وكان لديه مجلس هو بمثابة هيئة استشارية. أما الحكومة المركزية فكان يدير شؤونها «مينغ باشي» يعادل رئيس الوزراء أو الوزير الأعظم، و«كوشبيغي» هو القائد العام لجيش الخان، وزير البلاط، وكانت المناصب التالية معروفة في القصر: كووشبيغي (صقّار)، «آتاليك» (وصي عرش)، ديوان - بيغي (رئيس الديوان الحكومي)، «باراوانتشي» (المسؤول عن إيصال مراسيم الخان وأوامره إلى الجهات المعنونة إليها)، «كوربَاشي» (المسؤول عن مخزن الأسلحة)، «شيغاول» (رئيس التشريفات)، «ايشيك آغاباشي» (المسؤول الاكبر عن التشريفات)، «كاراوول بيغي» (رئيس الحرس الخاني)، «قاضي قلم» (كبير القضاة)، «ميراخور» (كبير السائسين - او المسؤول عن الاصطبل)، «باكول باشي» (كبير المشرفين على المطبخ)،«ميرزا باشي» (كبير الكتبة)، رئيس (المشرف على سلوك الموظفين، والتقيد بتعاليم الشريعة الاسلامية)، «وستارخانتشي» (معد المائدة او المشرف عليها)، ومن المناصب الدينية - شيخ الإسلام (رئيس الطوائف الاسلامية)، الصدر (مسؤول عن شؤون الأوقاف)، «عالم» (كبير المفتين).

أما بالنسبة للتقسيم الاداري لخانية خوقند، فكانت تتألف من أقاليم (انديجان، يارمازار، أوتش كورغان، خوجند، كورامين، طشقند، داشتي كيبتشاك)، وفي السنوات الأخيرة للخانية، كانت تتألف من خمسة عشرة منطقة يحكمها البكوات تعرف بـ «البيكية» وهي: خوقند، مرغيلان، شهري خان، انديجان، نامنغان، سوخ، محرم، بولاك باشي، اراوان، باليك، تشارتاك، ناوكينت، كاسان، تشوست، بابادارخان. وكان على رأس الادارات الاقليمية حكام وبكوات؛ أما المناطق الريفية والقروية، فكان يشرف عليها الـ «اكساكاليون - جمع اكساكال، شيوخ أو عمد».

كان للجيش دور كبير في الحياة الاجتماعية السياسية، في خانية خوقند وفي الخانيات الاقطاعية الأخرى في آسيا الوسطى، وكان واضع مبادئ هذا الجيش وقواعده هو الأمير عليم خان. وكان الجيش يتألف من: الفرسان (سيباي)، افواج

جديدة في منطقة بوز (١٨٤٩ ـ ١٨٥١م). وفي عام ١٨٥٣م، وبتكليف شخصي من خودايار خان نفسه، حفرت أقنية عند المجرى السفلي لشهريخان ساي وفايزاباد ساي. واستمرت عملية حفر الأقنية التي توصل المياه إلى السُّهْبِ القاحلة، حتى بعد خمسينات ق ـ ١٩م. ونذكر من هذه الأقنية قناة اولوغ نهر (١٨٧٠ ـ ١٨٧٧م).

كذلك اشتهرت مدن خانية خوقند (خوقند، مرغيلان، انديجان، اوش، شاش وغيرها) بالحرف اليدوية. وجاء في المراجع التاريخية ان عدد الصناعات والحرف اليدوية في فرغانة كان اكثر من ٤٠ حرفة، واشتهرت فرغانة في انتاج المصنوعات اليدوية من الحرير والمعادن والخشب والخزف الخ. وكان حرفيو فرغانة المهرة يصنعون الحلي الرائعة من الذهب والفضة، ويصنعون الأسلحة، والعربات المختلفة وعُدد الخيول، والملابس الصوفية، والأقمشة الحريرية الثمينة. وكانت المصنوعات الفرغانية تلقى رواجاً كبيراً في الأسواق الداخلية والخارجية، ومنها: الاطلس والابريشين، والزجاج، والعربات، والكارباس، والأواني، والمغاسل، والاحذية، ومعاطف الفرو، وسجاجيد السوزاني المزخرفة والمصنوعة من الحرير والقطن، والقبعات، والخيام، وغيرها من المصنوعات الكثيرة .

كذلك كانت التجارة مزدهرة. ونذكر من أهم المدن التجارية الخوقندية: خوقند العاصمة، طشقند، خوجند، مرغيلان، نانغان، انديجان، اوش وغيرها. كانت هذه المدن، تقيم علاقات تجارية نشطة، مع بخارى، وخيوة، وتركستان الشرقية، وايران، وافغانستان، وروسيا. فكانت تستورد من الخارج: الأواني الصينية، والمنسوجات الحريرية، والشاي، والمنتجات المصنوعة من الحديد وحديد الزهر والفولاذ؛ وتصدر من مدن خانية خوقند: الأصباغ، والأقمشة القطنية، والحرير، والقطن، والفواكه المجففة ... الخ.

النظام الاداري في خانية خوقند: لم يحظَ بدراسة كافية، شأنه شأن الانظمة الإدارية في الخانيات الاقطاعية الأخرى في آسيا الوسطى. وكلّ ما يمكننا قوله في

في تاريخ خانية خوقند، بعنوان «تاريخ شاهروخي» (تم تاليفه عام ١٢٨٨، ١٨٧١، ١٨٧٢م)، توراخوجا - إيشان انديجاني، مؤلف «مرآة الفتوح» (تم تاليفه في سبعينات ق - ١٩م)، ميرزا عزيز مارغيناني، مؤلف الكتاب القيمّ في تاريخ فرغانة ومارغينان «تاريخي عزيزي»، ملاّ عوض محمد عطار خوقندي، مؤلف «تحفة التواريخ خاني» (كتب في ق - ١٩م)، وأخيراً تجدر الاشارة إلى ميرزا سانع محمد بادخشي، الذي كتب مؤلفاً رائعاً جداً في تاريخ بادخشان (عام ١٩٠٨م).

وحري بنا ايضاً أن نذكر المؤلّفين المهميْن: «بحث في علم معمى كامي» و«تحفة الطيب».

وهنا، ينبغي لنا ذكر عدد من اسماء الشعراء والادباء البارزين: مجذوب نامنغاني (ق - ١٨م)، عمرخان (١٨١٠ - ١٨٢٢م)، ملاّ باسيجان منظور (ق - ١٨م)، مخلار ايّم (نادري)، فاضلي نامنغاني (ق - ١٨، بداية ق - ١٩م)، ملاّ شمس شوقي (ق - ١٩م) وغيرهم.

مجذوب نامنغاني: (اسمه الكامل: خليفة عبد العزيز نامنغاني - شاعر كبير ترك ديوان شعر. ولكن بالنسبة للمؤرخين، فإن الأثر الأهم هو في تراجم حياة الأولياء «تذكر حضرة مجذوب نامنغاني» حيث تصادفنا، علاوة على تراجم الحياة، مواد تاريخية كثيرة، ومفيدة لدراسة الحياة الاجتماعية السياسية في البلاد.

أما **عمر خان** المعروف باسم «أميري»، و**نادري**، فإنهما ترأسا الحركة الأدبية في فرغانة في النصف الاول من ق - ١٩م، وأسهما بمؤلفاتهما وابداعهما إسهاماً كبيراً في تطور الشعر في آسيا الوسطى.

وفي ما يتعلق بالشعراء: فاضلي وملاّ واسيجان، ومنظور شوقي، فإن اشعارهم امتازت بمواضيعها التاريخية. وذلك بالتحديد ما تمتاز به الاشعار التاريخية في «عمر نامة» (او «شاهنامة» او «ظفر نامة»)، والمؤلفة من ٥٠٠٠ بيت من

المشاة (الـ «سرباز») والمرتزقة، المؤلفة من الشوغناي والبادخشان والكاراتيغ. والمدفعية (توبتشي). وكان يقوده «أميري لاشكار» (قائد عام)، و«مينغ ـ باشي» (قائد الف)، و«يوزباشي» (قائد مئة)، و«توغ بيغي» (حامل راية)، و«توبتشي باشي» (قائد مدفعية) وغيرهم من القادة.

في المراجع التاريخية، تصادفنا معلومات شحيحة وضئيلة جداً عن وضع الـ «رايات» واشكال الاستغلال الاقطاعي. ويلاحظ من خلال المعلومات الواردة في وثائق وشهادات الاوقاف الممنوحة لمزار سلطان سعيد اوليا في إقليم نامنغان، أن نظام الرق كان موجوداً في ممتلكات رجال الدين الاقطاعيين، وان الفلاحين المنتجين الرئيسيين للمحاصيل الزراعية والحرفيين ايضاً، كانوا يدفعون ضرائب باهظة جداً. فعلاوة على الخراج ـ الضريبة الرئيسة على الأرض والتي تساوي ٣/١ حجم المحصول ـ كانوا يدفعون «الباج» (ضريبة يدفعها الحرفيون والتجار)، وضريبة الزكاة وغيرها، جميعها موحدة تحت اصطلاح مشترك « ـ الوغات ـ و ـ سالوغات». وفوق ذلك كله، كانوا يرغمون الفلاحين على العمل في مشاريع البناء: بناء الأقنية وصيانتها، الطرق، الجسور، الحصون، الخانات ... الخ.

ثارت الجماهير الكادحة عدة مرات احتجاجاً على استعباد الخان والاقطاعيين وجباة الضرائب، وجورهم وتعسفهم. ونذكر من تلك الثورات والانتفاضات، تلك التي جرت في ضواحي أوش وطشقند عام ١٨٤٥م، انتفاضة كادحي جنوب قيرغيزيا (عام ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨م)، وثورة سكان المناطق الشمالية التي امتدت لتشمل مناطق أخرى من الخانية، والانتفاضة الشاملة للجماهير الكادحة احتجاجاً على ظلم واستغلال خودايار ـ خان والمحيطين به في سبعينات ق ـ ١٩م.

العلوم والثقافة: تحتفظ المصادر والمراجع بأسماء العديد من علماء فرغانة (ق ١٨ ـ النصف الاول من ق ١٩م)، (ولا سيما المؤرخين) والأدباء والشعراء. ومن المؤرخين نذكر: حكيم خان تيوري، مؤلف الكتاب القيّم في التاريخ: «منتخب التواريخ» (ألفه عام ١٢٥٩ ـ ١٨٤٣م)، نياز محمد كوكاندي، مؤلف الكتاب الرائع

الفصل الثالث عشر

تركستان ـ مستعمرة روسية

الاستيلاء على آسيا الوسطى

إن انحلال دولة التيموريين في منطقة آسيا الوسطى ونشوء ثلاث دول مستقلة مكانها، هي: خانيات خيوة، بخارى، وخوقند، قد أدّيا إلى تمهيد الطريق أمام روسيا إلى هذه المنطقة الغنية والاستراتيجية في آسيا الوسطى، تلك المنطقة التي كانت محط أطماع روسيا القيصرية، ليس كمورد هام للخامات لصناعتها الخفيفة الآخذة في التطور والنمو وكسوق لترويج السلع، بل كجسر للتوغل في المناطق الغربية من الصين (تركستان الشرقية)، وفي أفغانستان والهند.

بدأت روسيا خطتها العدوانية بالاستطلاعات، وجمع اكبر قدرٍ ممكن من المعلومات عن شعوب هذه المنطقة، وعن مواردها وثرواتها الطبيعية، وعن الاوضاع العسكرية ـ السياسية في هذه الخانيات. كانت الحكومة الروسية قد بدأت نشاطاتها هذه منذ أواسط ق ١٦م، أي قبل استيلائها على هذه المنطقة بثلاثمئة سنة. ولهذا الهدف أخذت ترسل وكلاء شركاتها التجارية (مثلاً «الشركة التجارية الموسكوفية»)، ومن ثم الرسل، التجار، وضباط القيادة العامة، ورسامي الخرائط الجغرافية وغيرهم. وكانت أمامهم مهمات واضحة وهي: جمع معلومات عن الاوضاع الاقتصادية والسياسية في الخانيات، وتحصيناتها وقواتها العسكرية، وعلاقاتها مع الدول الأخرى، ولا سيما ايران وتركيا. فمثلاً كلف السفير إ. د. خوخلوف الموفد

الشِّعر، تتحدث عن تاريخ حكم عمر خان، احد اعظم حكام أسرة المينغ. أما قصيدة شوقي، فيشغل الحيز الاكبر منها «جانغ نامة» (فرغ منها عام ١٢٩٦هـ - ١٨٣٥م) وتتحدث القصيدة عن انتفاضة الكيبتشاكيين في عهد خودايار خان. في حين يتطرق ملاً واسيجان منظور في اشعارهما، إلى عرض تاريخ حكم آخر حاكم من اسرة مينغ «خودايار خان».

ومن الآثار المعمارية، التي اقيمت في فرغانة ابان حكم الحكام من أسرة الـ«مينغ»، حري بنا الاشارة إلى مدرسة ناربوتابي الاسلامية الفخمة (نهاية ق ١٨م)، نيكروبول داخمائي شاهان ومداري خان (ثلاثينات ق ١٩م)، المسجد الجامع ذي المأذنة الشامخة (١٨١٠ - ١٨٢٢م)، اورطة خودايار المشهورة (١٨٧٠م). ونقلاً عن ف. ف. فيليامينوف زفيرنوف، كانت خوقند تضم اثنتي عشرة مدرسة دينية، تسعة خانات للقوافل، ستة حمّامات، سوقاً مسقوفة أنشئت في عهد خودايار خان. وجدير بالذكر حضرة خوجا أمين - كاري (ق - ١٨م) ومولوي آتا والي خان - تيوري (بداية ق - ٢٠م)، وفي نامنغان: السوق المسقوفة في اوش، الجامع، الحمام في مرغيلان، المدرسة الدينية والجامع في انديجان...الخ.

خان (١٧١٥ ـ ١٧٢٨م) من «أخيه الرهيب» وقام بتدمير القوات الروسية، وقَتَلَ منهم عدداً كبيراً، من ضمنهم قائد القوات الروسية الأمير بيكوفيتش ـ تشير كاسكي.

وعلى الرغم من ذلك لم تكف روسيا عن محاولاتها، ولم تترك خانيات آسيا الوسطى وشأنها. وسنتحدث عن ذلك بالتفاصيل.

كذلك مارست روسيا سياستها التوسعية ضد كازاخستان، التي كانت آنذاك مجزأة إلى ثلاث دويلات «جوزات»: (الجوزة الكبرى والمتوسطة والصغرى) وما تزال مثخنة بالجراح، وتعاني من آثار الغزو «الجونغاري» لها.

ولاستغلال هذه الاوضاع، ضاعفت روسيا نشاطاتها السياسية في هذه المناطق، وتوغلت الدبلوماسية والخبراء العسكريون في آسيا الوسطى وكازاخستان. من ثلاث جهات: استراخان واورينبورغ وسيبيريا.

ومن الأمور، التي مهدت السبيل، إلى حد كبير، أمام روسيا لتنفيذ خطتها التوسعية والاستيلاء على آسيا الوسطى وكازاخستان، كان الانضمام الطوعي للجوزة الصغرى (عام ١٧٣١م) والمتوسطة (عام ١٧٣٤م) إلى روسيا. وبعد ذلك، وفي ثلاثينات وبداية خمسينات القرن الثامن عشر، اقامت روسيا العديد من الحصون والاستحكامات على أنهار «يايك»، «ايشيم» و«ايرتيش» وأسكنت فيها القوزاق الروس والبشكريين والميشيرياكيين الموالين لروسيا. وهنا ظهرت المدن ـ القلاع الكبيرة مثل اورينبورغ وبيتروبالوفسك، ترويتسك، بختارما، كازالينسك، بيتروفسك، وسيميبالا تينسك. ولقد ساعدت هذه الحصونُ والقلاع الروسَ في التغلغل إلى داخل كازاخستان، واحتلال مناطقها الداخلية والاستيلاء على آسيا الوسطى فيما بعد.

كانت روسيا قد شنت الحرب ـ بصورة فعلية ـ في بداية عام ١٨٣٩م، إذ أرسلت ما يربو على ٥٠٠٠ جندي وضابط، تدعمهم بطاريتا مدفعية، خرجوا من أورينبورغ، ومن خلال استحكامات نوفو اليكسندروفسكوي على مانغيشلاك اتجهوا إلى خيوة. وكانت هذه الحملة بقيادة ف. أ. بيروفسكي حاكم أورينبورغ

إلى خانية بخارى عام ١٦٢٠م بـ «بذل كل ما في وسعه للتحري عن وضع أمير بخارى وعلاقاته بالسلطان التركي والشاه الايراني والقيصر الجورجي الاورغيني (الاورغينتشي - ب. أ)، ومن هم أصدقاؤه ومن هم أعداؤه؟ وما عدد قواته العسكرية وما مدى امكانياته المادية، وعما إذا كان يتأهب لمحاربة ملك ما او مصادقة قيصرٍ ما وتوطيد علاقاته معه. وقد طلب من السفير أن يكون التحري عن هذه الأمور في منتهى السرية». وبمثل هذه المهمات أرسل الى اورغينتش وبخارى وبلخ الاخوان ب. أ و س. إ. بازوخين (١٦٦٩ - ١٦٧١م)، وف. أ. داوودوف ومحمد يوسف قاسموف، وفلوريو بينيفيني وسكرتير اللجنة الشرقية لدى الشؤون الخارجية (١٧٢٥م) وغيرهم. وجاء في التوجيهات الخاصة الموقعة بخط بطرس الاول بتاريخ ١٣ يوليو ١٧١٨م والمسلمة باليد لفلوريو بينيفيني: «.... لدى وصولك إلى هناك، ادرس وابحث جميع السبل المؤاتية لمعرفة عدد استحكامات وحصون الخان، واماكن وجود اعداد كبيرة من القوات العسكرية والفرسان والمشاة، والمدفعية، وغير ذلك من الأسلحة. وما حال هذه القوات، وما مدى حراسة الاستحكامات والقلاع، وعن تنظيم القوات العسكرية والمدفعية، وغير ذلك من الأمور. ومعرفة أي الملوك يتعامل مع الفرس والخيويين وغيرهم من حكام الدول المجاورة، وهل يتعامل مع الأتراك؟ وهل من أخطار تهدده؟ وهل يحظى بتأييد ودعم شعبي؟ وهل هو حاكم مطلق؟ وهل توجد ميول للتمرد، وما نوعية نظام الحكم. وما الدول المجاورة، وأي دولة تشكل خطراً كبيراً بالنسبة إليه، هل يحتاج إلى مساعدة القيصر العظيم...، ما السلع المنتجة في بخارى ومع من يتاجرون بها....».

كذلك كلف بطرس الاول سفيره، بالبحث عن إمكانية او وسيلة لتوقيع اتفاقية دفاع مشترك مع خانية بخارى، وأعرب عن استعداده لارسال قوات من الحرس الروسي إلى بخارى قوامها عدة مئات، او اكبر عدد من الجنود لحمايته وحراسته...

وهنا، تجدر الاشارة إلى أنه قبل ذلك - أي عام ١٧١٧م، كان بطرس الاول قد ارسل إلى خيوة قوات عسكرية مسلحة بصورة جيدة، يربو عددها على ستة آلاف عسكري وضابط مزودين بالمدفعية، وذلك لاخضاع الاقطاعيين الخيويين له، وإعطائهم الجنسية الروسية. إلا أن خطته منيت بالفشل، إذ لم يخف شيرغازي -

القريبة الواقعة على مشارف طشقند. وفي عام ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣م، استولت روسيا على اوليا ـ آتا وبيشكيك وتوكماك وسوزاك وياسى (تركستان). وهكذا التقت قوات الخطين ـ اورينبورغ وسيبيريا ـ على مشارف تشيمكينت قبيل حلول عام ١٨٦٤م. ومنذ ذاك الحين جرى غزو آسيا الوسطى على نطاق واسع، إذ احتلت في البداية خانية خوقند، ثم خانيتا بخارى وخيوة. وتجدر بنا هنا الاشارة الى الاسباب التي علل بها نائب المستشار أ. م. غورتشاكوف عام ١٨٦٤م، في خطابه الموجه إلى الحكومات الأوروبية، دوافع هذه العملية العسكرية ـ السياسية، إذ ذكر من ضمن ما ذكر: «... أن مصالح حماية الحدود والعلاقات التجارية تتطلب دائماً أن تكون للدول الاكثر رقياً سلطة معلومة على جاراتها». لا نرى هنا اي داع للتعليق. إلا أن التاريخ لم يشهد، ولا يكاد يعرف، قيام دولة عظيمة بحماية حدودها خارج أراضيها باخضاع الشعوب والبلدان الأخرى المستضعفة والأقل منها حضارة. هنا تتجلى بوضوح السياسة التوسعية التي اتبعتها روسيا في علاقاتها بجاراتها من الدول والشعوب، وذلك ما فعلته بالنسبة إلى آسيا الوسطى وكازاخستان.

باختصار، قبيل خريف ١٨٦٤م، التقت قوات الخطين ـ السيبيري بقيادة الجنرال تشيرنيايف والسرداري بقيادة العقيد فيريوفكين عند مشارف تشيمكينت. كانت قوات كل خط تتألف من ١٣ سرية مشاة وخمسمئة قوزاقي وعشرين مدفع ميدان للاستعمال في الجبال. وقد سقطت تشيمكينت في ٢٢ سبتمبر ١٨٦٤م بعد حصار طويل وقتال، مما أدى إلى انفتاح الطريق مباشرة إلى طشقند. الا أن الحكومة القيصرية أصدرت أوامرها لجنرالها بالتريث وعدم مساس هذه المدينة، نظراً لعلاقاتها التجارية الاقتصادية الوثيقة مع روسيا، وتزايد شعور النقمة واستياء السكان من سلطة الخانية الخوقندية فيها، ورأت أن طشقند ستنفصل من تلقاء ذاتها عن خوقند، وستطلب حماية روسيا.

وعلى الرغم من ذلك، وفي الخطاب الدوري سمح الحاكم العسكري العام لأورينبورغ ن. أ. كريجانوفسكي للجنرال تشيرنيايف باحتلال طشقند، إذا ما حاول الأمير البخاري مظفر (١٨٦٠ ـ ١٨٨٥م)، الذي كان آنذاك موجوداً مع جيشه

العسكري شخصياً. وجرت أول معركة حاسمة بين القوات الروسية والخيوية في موقعة اكبولاك. إلا أن القوات الروسية لم تستطع احراز انتصار فوري، واستمرت المعركة مدة أربعين يوماً بين كرّ وفرّ، اخفقت القوات الروسية بعدها في تحقيق أي نجاح، فقد أخذت الثلوج تتساقط وجاءت موجات من الصقيع، مما حال دون تقدم الروس، إضافة إلى المجاعة التي عانوا منها، والأمراض التي تفشت بين الجنود، فاضطر بيروفسكي للعودة من حيث اتى الى اورينبورغ. وفي هذه الحملة فقد خمس الجنود والجمال. وادت هزيمة بيروفسكي وفشله الى الاساءة لسمعة روسيا وهيبتها. الا انها رغم ذلك لم تتخلّ عن خطتها في اخضاع خانيات آسيا الوسطى. فواصل رجال سلاح الهندسة الروس اقامة المزيد من الاستحكامات والقلاع في اليكسندروفسك، ومانغيشلاك وكازالينسك (عام ١٨٤٥م)، وفي سرداريا السفلى. وبعد مرور سنتين (في عام ١٨٤٧م) قامت القيادة الروسية بالمناوشات بهدف الاستطلاعات العسكرية، وتمكنت من احتلال حصني جان خوجا وخوجا - نياز الخيويين. وهنا باشرت روسيا بإنشاء أسطولها البحري في بحر الأرال بقيادة الكونت ادميرال د. ا. بوتاكوف. وفي عام ١٨٥٠م استولى الجيش الروسي على الاستحكامات العسكرية التابعة للخانين الخيويين تويتشي بيك وكوش كورغان. وقبيل بداية ستينات القرن ١٩م احتل الروس استحكامات أخرى على نهر سرداريا: «اكبولاك»، كوموش - كورغان، تشيم - كورغان، كوش - كورغان وآك - ماتشيت (كزيل - اوردا).

كذلك انجز الجنرالات الروس أعمالاً كثيرة على خط «ايل»، حيث اقاموا في عام ١٨٥٤م استحكامات «فيرني»، التي ساعدتهم فيما بعد على إخضاع القبائل في الجوزة الكبرى، في مدن اوليا - آتا وتشيمكيت وبيشكيك وطشقند ومدن أخرى في آسيا الوسطى.

في مطلع ستينات ق - ١٩ أجرت القيادة العامة الروسية بعض التعديلات على خطتها لاحتلال آسيا الوسطى، إذ اخذت تركز اهتمامها على خطي اورينبورغ وسيبيريا، واصدرت الحكومة الروسية أوامرها لجنرالاتها باحتلال المدن الكبيرة

زير ـ بولاق للسلطة الروسية. وفرضت على بخارى جزية قدرها ٥٠٠٠٠٠ روبل، ونال التجار الروس حق التجارة الحرة (بدون دفع جمارك او ضرائب) في جميع انحاء إمارة بخارى، وحق افتتاح وكالات تجارية ـ صناعية فيها وفي المدن التابعة لها، وبموجب اتفاقية ١٨ سبتمبر ١٨٧٨م اضطر أمير بخارى إلى الاعتراف بالحماية الروسية.

وبعد ذلك تفرغت روسيا إلى خانية خيوة، وفي عام ١٨٦٩م أنزلت روسيا قواتها بقيادة العقيد ن. غ. ستوليتوف ـ على الشاطئ الشرقي لبحر قزوين، حيث أقامت استحكامات كراسنوفودسك، وفي الفترة ما بين ١٨٦٩ ـ ١٨٧٣م اخذت تشن انطلاقاً منها حملات استطلاعية وعسكرية وصولاً إلى عمق تركمانيا الحالية.

وباختصار حتى بداية عام ١٨٧٣م، كانت القوات الروسية تطوق خانية خيوة من ثلاث جهات: من الغرب ـ قوات منطقة القوقاز، من الشمال ـ قوات منطقة اورينبورغ، ومن الشرق ـ قوات منطقة تركستان. وبدأت الحملة العسكرية على خيوة في ربيع ١٨٧٣م، بقيادة مشتركة برئاسة الجنرال ك. ب. كاوفمان، وشارك فيها ما يزيد على ١٢٠٠٠ جندي وضابط، وسفن وبوارج اسطول القزوين و ٢٦ مدفعاً من العيارات المختلفة. وحتى ٢٦ من مايو ١٨٧٣م كانت قوات اورينبورغ من الشمال وقوات تركستان من الجنوب الشرقي قد اقتربت من مشارف خيوة. اما قوات منطقة القوقاز، فلم تتمكن من الوصول إلا الى عين «ايغدي»، ولم تستطع مواصلة السير في السهب القاحل العديم الماء، فاضطرت إلى العودة إلى كراسنوفودسك، وبعد معارك استمرت مدة يومين (٢٨ و ٢٩ مايو) هزمت القوات الخيوية.

وبموجب اتفاقية السلام المبرمة بين خيوة وروسيا، أعادت روسيا سعيد محمد رحيم خان الثاني (١٨٦٥/ ١٩١٠م) إلى العرش، وصارت خيوة تدفع جزية كبيرة لروسيا، واعترفت بالحماية الروسية، وعلاوة على ذلك ضم الساحل الجنوبي من خيوة بكامله إلى روسيا.

وكما حصل في إمارة بخارى، كانت أسباب سقوط خيوة واعترافها بالحماية

في خوجيند، احتلال المدينة المذكورة.

ذلك ما كان يريده الجنرال تشيرنيايف. وفي ربيع ١٨٦٥ سار بقواته نحو طشقند. وفي ٢٨ ابريل احتل قلعة نيازبيك المشرفة على شبكة الري، وعلى الطريق التي تزود طشقند بالمؤونة. بيد أنّ تشيرنيايف اخفق في الاستيلاء على المدينة، إذ لقي مقاومة بطولية عنيفة من قبل كبير الأمراء والأمير «عليم قل» الذي كان على رأس الطشقنديين والقوات التي هبت لنجدتهم، ودافعوا دفاعاً مستميتاً عن كل شارع ومسجد وبيت. وهنا لجأ الروس إلى أبشع الأساليب البربرية لتحطيم عناد المدافعين عن المدينة وصمودهم، فأقفلوا قناة كايكاوس وقطعوا الماء عن المدينة، إلا أن محاولتهم البربرية هذه منيت بالفشل، وصمد المقاومون صمود الابطال أمام الغزاة مدة اثنين وأربعين يوماً. لكن الاضطرابات التي دبت في القوات الخوقندية بعد وفاة «عليم قل» وخيانة بعض الاغنياء والوجهاء أجبرت الطشقنديين على الاستسلام، وعقد صلح مع الجنرال تشيرنيايف.

وحصل ذلك ـ نقلاً عن مؤلف كتاب «تاريخ طشقند الجديد» ـ في ١٢ صفر ١٢٨٢هـ (٨ يوليو ١٨٦٥م).

لم تسقط طشقند بسبب سوء التسلح او تقاعس المدافعين عنها، بل بسبب ضعف إرادة الخان الخوقندي سلطان سعيد وجبنه (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥م) وسوء تصرف قادته العسكريين، وخيانة فئة من طبقة ذوي الامتيازات، والتجزئة الاقطاعية وغياب التضامن بين خانية خوقند وإمارة بخارى.

لقد أدّى سقوط طشقند إلى تمهيد السبيل أمام الغزو الروسي واحتلال الجزء المتبقي من الخانية الخوقندية، ثم إخضاع إمارة بخارى وخانية خيوة لسلطة روسيا القيصرية. وفي عام ١٨٦٦م دخلت القوات الروسية إمارة بخارى واحتلت خوجيند، اورا ـ تيبا، وجيزاك، وفي عام ١٨٦٨ استولت على سمرقند «وكتا ـ كورغان». وبعد هزيمة «زير ـ بولاق» (٢ يونيو ١٨٦٨م) اضطر الأمير مظفر إلى توقيع اتفاقية السلام المشينة المذلة التي خضعت بموجبها جميع الاراضي المحتلة من بخارى بمدنها خوجيند واورا ـ تيبا، وجيزاك وسمرقند وكتاكورغان، وحتى

سرداريا، سيميريتشي، فرغانة، زرافشان وما وراء القزوين. وبحسب احصائيات عام ١٨٩٧م، كان عدد سكانها ٥٢٨٠٩٨٣ نسمة، منهم ٣٥,٧٧٪ من الاوزبك، و٤٤,٣٦٪ من الكازاخ والقيرغيز، و٦,٧٪ من الطاجيك، ٤,٩٨٪ من التركمان، و٢,٢٦٪ من الكاراكالباق، ٣,٧٥٪ من الروس.

خضع الحاكم العام لتركستان مباشرة لوزير الحربية، ومن مهامه إدارة المنطقة عسكرياً ومدنياً. وكان النظام الاداري على النحو التالي: يستعين الحاكم بمساعد، وبمجلس خاص يتألف من العسكريين والمدنيين. ويدير الجهاز التنفيذي شؤون البلاد. وتتألف الإدارة من أقسام، مهمتها تتعلق بـ: ١) قضايا الادارة والاعضاء العاملين فيها، ٢) القضايا المتعلقة بالاراضي وجبي الاتاوات والضرائب، والبناء وشبكة الاتصالات، والتعليم والشؤون الصحية؛ ٣) المسائل المتعلقة بالشؤون المالية وضريبة الأراضي، والاوقاف، ومراقبة الرعايا الأجانب، ٤) الشؤون الدبلوماسية والعلاقات الخارجية (أبدلت في ما بعد في عام ١٨٩٩ بالوزارة المفوضة بالشؤون الخارجية)، وكانت مهمتها الاساسية معالجة القضايا المتعلقة بالمحميات الروسية (بخارى وخيوة).

أما الادارة المحلية فتتألف من حكام المحافظات العسكريين والمدراء، في الأقضية مدراء أقضية، وفي النواحي مدراء نواح، وفي القرى عُمد. مهمة الادارة المحلية الإشراف على شؤون السكان، الحضر منهم والرحل، وجمع الاتاوات والضرائب، والاهتمام بشبكات الري، إضافة إلى القضاء والشؤون الاقتصادية. وكان هؤلاء الحكام والمدراء من العسكريين.

إستغلال منطقة تركستان

كان الهدف الرئيس للادارة الروسية، كما ذكرنا آنفاً، يكمن في تحويل تركستان إلى مصدر أساسيّ للخامات الرخيصة وإلى سوق لترويج سلعها، واخضاع شعوبها إخضاعاً تاماً لارادتها، وجعلها آلة طيعة في ايدي الروس. كانت السلطة الروسية، تعامل السكان المحليين الذين كانت تنعتهم «بالسكان الأصليين»، معاملة السادة للعبيد. ونقلاً عن الحاكم العسكري س. د. دوخوفسكي (١٨٩٨ -

الروسية، تكمن في انعدام الوحدة بين الأمراء والوجهاء وكبار المسؤولين، والصراع الاقطاعي، والتنافس على السلطة (تنازع سعيد محمد رحيم خان واخوه آتاجان تيورا على العرش).

وبعد ذلك تفرغت روسيا، من خلال الجنرال كاوفمان، الحاكم العسكري لتركستان، لاخضاع خانية خوقند، إذ كانِ الوقت مناسباً، والخلافات قد دبت في الأسرة الحاكمة المتنازعة على السلطة والعرش. فاستغل كاوفمان الفرصة. وفي عام ١٨٦٦م، أجبر هدايار خان (١٨٦٥ ـ ١٨٧٥م) على توقيع اتفاقية جائرة، منحت التجار الروس الحق، في أن يقيموا في مدن الخانية المراكز التجارية والخانات، وقدمت لهم تسهيلات جمركية، تتيح لهم نقل سلعهم، بدون عوائق عبر مدن الخانية إلى البلدان الأخرى. وآنذاك اعترف هدايارخان بضم جزء من اراضي الخانية (مدينة طشقند، الاراضي المحاذية لسرداريا، جنوب كازاخستان والمحافظات الشمالية من قيرغيزستان) إلى روسيا.

وفي الفترة ما بين ١٨٧٣ ـ ١٨٧٦م جرت انتفاضة شعبية عارمة برئاسة الملاَّ اسحاق (بولادخان)، قام هدايا خان بالقضاء عليها مستعيناً بالجنود والضباط الروس، ولم يستفد من ثمارها سوى الجنرال الروسي كاوفمان.

في ١٩ فبراير ألغيت خانية خوقند، وأعلنت مكانها محافظة فرغانة، التي ألحقت بمحافظة تركستان، التي بقيت حتى ١١ يوليو تعرف بمقاطعة تركستان.

الادارة الاستعمارية

بعد اخضاع آسيا الوسطى برمتها، باشرت الحكومة الروسية بانشاء ادارتها الاستعمارية، الأمر الذي لابد منه لتحويل البلدان المحتلة إلى مستعمَرة.

كانت السلطة العليا في المنطقة في قبضة الحاكم العسكري العام لتركستان، الذي تمتع بسلطات واسعة النطاق: تحديد العمليات العسكرية وإجراؤها، وإقامة علاقات دبلوماسية مع البلدان الأخرى ... الخ.

وكانت ولاية تركستان (المعروفة ايضاً بمقاطعة تركستان) تشغل مساحة كبيرة من الأراضي: آسيا الوسطى باكملها، وجزءاً من كازاخستان يشمل محافظات

١٨٩٠ـ ١٩٠٠م ارتفع عددها إلى مئة وأحد عشر مصنعاً تعمل بصورة رئيسة في ميدان حلج القطن وإنتاج الزيوت. وحتى عام ١٩١٤م كان عدد هذه المصانع قد بلغ أربعمئة وخمسة وعشرون مصنعاً. إلا أن هذه المؤسسات كانت متخصصة في إنتاج الصناعات الخفيفة، ومعظمها يعود لرأسماليين روس وأجانب.

وسعياً لتلبية احتياجات صناعاتها الخفيفة أولت الحكومة القيصرية اهتماماً كبيراً تطوير زراعة القطن في منطقة تركستان، وبادرت بالدرجة الاولى إلى تحسين أنواع القطن المحلي السائدة زراعته فيها منذ قرون، وأبدلت هذه الانواع بأنواع أخرى اميركية عالية الجودة. وادخلت تقنية جديدة في ميدان الزراعة: المحاريث الحديدية، المذاري، المسلفات، حاصدات الحشائش وغيرها من الآلات الزراعية. ونظرا للمهمات المشتركة العامة لتطوير زراعة القطن، ازدادت المساحات المخصصة لزراعة القطن بشكل ملحوظ، فمثلاً في الفترة من ١٩٠٠ـ ١٩١٥م، أي خلال خمس عشرة سنة ازدادت المساحات المزروعة بالقطن في وادي فرغانة من ١٨٨٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠٠ ديساتينا (الديساتينا كانت تعادل ١,٠٩ من الهكتار) ومن ١٥,٥ ألف ـ ٦٧ ألف ديساتينا في محافظة سرداريا. اما في عموم منطقة تركستان فمن ٣٤٦ ألف إلى ٤٩٦ ألف ديساتينا. وكانت هذه الزيادة التدريجية المتنامية تتم على حساب المساحات التي كانت تزرع بالحبوب والمحاصيل الزراعية الأخرى. فمثلاً بلغت نسبة الاراضي المزروعة بالقطن عام ١٨٨٥م ما يعادل ١٤٪ من مجمل الاراضي الصالحة للزراعة، وفي عام ١٩١٤م ارتفعت هذه النسبة الى ٤٤٪، في حين انخفضت نسبة المساحات المخصصة لزراعة الذرة الصفراء من ٢٢٪ إلى ١١٪، والفصفصة من ١٥٪ إلى ٨٪، والأرز من ١٦٪ إلى ٧٪. ولم تشذ عن هذه الصورة محافظات تركستان كافة، ونذكر على سبيل المثال محافظتي سرداريا وزرافشان.

إن عدداً من الاجراءات المتخذة من الادارة الاستعمارية لشؤون الاراضي والضرائب، أدى الى المساس بشرف السكان المحليين وكرامتهم، ليس السكان البسطاء وحدهم بل الاغنياء والوجهاء أيضاً، ومن ضمنهم رجال الدين، إذ استولت الدولة على أجزاء من أراضيهم لتستغلها لمصلحتها الخاصة. ومثل ذلك ايضاً حصل

١٩٠١م) كان من الضروري «على السلطات الروسية فرض رقابة شديدة صارمة على السكان الاصليين، إذ انهم اعتادوا الخضوع للسلطة المطلقة الصارمة لملوكهم وحكامهم السابقين ؛ وليس من الجائز التعامل معهم وفق المبادئ الانسانية».

بوشر بـ «استصلاح» تركستان بإرسال فلاحين روس من أواسط روسيا، وإسكانهم في مناطق سيميريتشي، فرغانة، وسرداريا، حيث أقاموا العديد من المستوطنات والمدن. فمثلاً، حتى عام ١٨٩١م، في قضاءي «اوليات» و«طشقند» ظهرت ١٩ مستوطنة روسية يبلغ عدد سكانها ١٢٩٨ نسمة، وفي عام ١٨٩٦م كان عدد سكان المستوطنات الروسية الست في قضاء خوجند يبلغ زهاء ١٠٠٠ نسمة، واستقر معظم الناطقين باللغة الروسية في الجزء الجديد من طشقند، وبُنيت للروس مدينة سوبيليف (فرغانة حالياً) بالقرب من مدينة مرغيلان.

وللأسباب نفسها أقيمت في مدن تركستان، وفي بخارى وخيوة شبه المستقلتين وكالات لشركات النسيج الروسية والتجارة، ومستودعات للخامات والسلع. وكانت مهمتها، تكمن في شراء أهم الخامات اللازمة للنسيج: القطن، الحرير، الصوف والجلود. كذلك كانوا يبيعون المنسوجات الروسية.

وبهدف تأمين احتياجات الصناعات الروسية، وسعياً وراء الاهداف السياسية والاستراتيجية، باشرت روسيا ببناء المصانع في مدن آسيا الوسطى، وإنشاء السكك الحديدية. فمثلاً في الفترة ما بين عامي ١٨٨٠ ـ ١٨٩٩م، أقيمت سكة حديد آسيا الوسطى الممتدة مسافة ١٧٤٨ كلم ما بين الساحل الشرقي لبحر قزوين ومدينة انديجان الفرغانة، وفي وقت لاحق مُدَّ خط لسكة الحديد من أورينبورغ الى طشقند، وفي عام ١٩٠٦م أقيمت سكة الحديد التركستانية السيبيرية الممتدة من مدينتي أورينبورغ وطشقند إلى اوليا ـ آتا و....

وكان بناء المؤسسات الصناعية يجري على قدم وساق. وكما هو معلوم، حتى عام ١٨٨٦م، كان عدد المصانع هنا واحداً وعشرين مصنعاً فقط: لحلج القطن، الجلود، تقطير الكحول، صناعة البيرة، ومعالجة الأرز وغيرها، وفي حين تم خلال عشر سنوات فقط (١٨٨٠ ـ ١٨٩٠م) بناء ستة وثلاثين مصنعاً جديداً، وما بين

المرابين وجورهم. فكثيراً ما كان صغار الفلاحين يلجأون إليهم للاستدانة، كما ازدادت وطأة الضرائب من العشر إلى ٣٥٪ من مجموع الدخل. وارتفعت ضريبة المسقّفات على البيوت من نوع كيبيتكا إلى ٦ روبلات للبيت الواحد، وضريبة شبكة الري الى روبلين لكل بيت، وضريبة مراقب او حارس شبكة الري إلى روبل و ٧٠ كوبيكا لكل فرد، وهلمّ جراً.

لقد أدى الظلم الاجتماعي والاستعماري إلى قيام حركات فلاحية ظهرت بصورة عفوية. ففي مبنى إدارة فرغانة، مثلاً، وفي شهر نوفمبر ١٨٧٩م اجتمع حوالى ٦٠٠ من فلاحي قضاء فرغانة، وطالبوا، بصورة قاطعة، بتخفيض الضرائب. وفي مثل هذا الوقت من عام ١٨٨٠م أعرب عمال قضاء خوجند عن استيائهم من جراء الضرائب الاضافية التي فرضها مدير القضاء بوتينشيف على الأراضي، وفي مطلع عام ١٨٨٢م احتج سكان قضاء نامنغان على الضرائب الاضافية. وفي سبتمبر من العام نفسه أعرب سكان «أوش» عن احتجاجهم إزاء التصرفات التعسفية للادارة الروسية المحلية. وحدثت اضطرابات وعمليات تمرد وعصيان في «تشوست» عام ١٨٨٦م.

وكانت أضخم عملية تمرد تلك التي قام بها شعب وادي فرغانة في شهر يونيو١٨٨٢م. حيث قام الفلاحون بالاعتداء على ممتلكات الاغنياء المحليين ومكاتب الادارة الروسية، حتى ان فلاحي بعض القرى والأرياف مثل قرية كورغان تيبا في قضاء انديجان وفي عدد من القرى القيرغيزية، انتفضوا بقيادة شخص يدعى درويش خان الذي اطلق على نفسه لقب «جيتيم خانوم» (أي - ايتام الخانات)، منادين باعلان الجهاد. كان يترأس هذه الحركات ممثلو طبقات الاقطاعيين، ورجال الدين الراغبون في استعادة بعض من امتيازاتهم السابقة، من خلال الحركات الفلاحية.

في التسعينات من ق ١٩م ازدادت حركات الاحتجاج، وأصبحت أكثر تنظيماً من السابق، وشملت العديد من قرى أنديجان وخوقند وأوش ومرغيلان والاقضية التركستانية الأخرى.

لأراضي الاوقاف التي لا يترك سوى جزء منها لاصحابها السابقين، وعلاوة على ذلك فرضت عليها الضرائب. كما استولت الدولة على الأراضي المشاعية.

الحركات الشعبية

إضافة الى ظلم الاقطاعيين المحليين واستبدادهم، ظهر ظلم الادارة الاستعمارية الروسية واستبدادها.

فعمال المصانع يتعرضون لاستغلال بشع، فقد مددت ساعات العمل من ١٢ الى ١٤ ساعة في اليوم.

والرواتب منخفضة، ولا توجد أية انظمة لحماية العمال. كما اظهرت نتائج عملية التفتيش التي قام بها الكونت «بالين» في عام ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م، أن اوضاع العمال في تركستان، ولا سيما السكان الاصليين المحليين، كانت رديئة جداً، وأسوأ بكثير من اوضاع عمال روسيا.

أدت هذه المعاملة إلى استياء العمال واحتجاجهم. ففي عام ١٨٨٥م، أعرب عمال مناجم الفحم في بيانجيكينت عن استيائهم ايضاً نتيجة رفض الادارة الاستعمارية تحسين ظروف العمل وزيادة رواتبهم. وقامت مجموعة من العمال الساخطين بالاعتداء بالضرب على رئيس الادارة الاستعمارية للمنجم وعلى اثنين من المراقبين. وأقدمت على تحطيم بعض من المعدات. وفي عام ١٨٩٨م، وللأسباب نفسها، تقدم مئة وثلاثون عاملاً من عمال البناء بطلبات مماثلة، في خوقند، وفي العام نفسه حصلت اضطرابات في مصانع تقطير الكحول.

كانت هذه أول مرة يحتج فيها عمال تركستان، مطالبين بحقوقهم.

وقبيل تسعينات القرن الماضي تدهورت ايضاً اوضاع الفلاحين. إذ ادى تجميع القسم الاعظم من الاراضي في أيدي الإقطاعيين المحليين وكبار التجار إلى ازدياد عدد الفلاحين المعدمين وملأكي الأراضي الصغار، وتزايد استغلال مستأجري الأراضي. كما أدت زيادة مساحات الاراضي المخصصة لزراعة القطن وتقليص الأراضي المزروعة بالحبوب إلى ارتفاع اسعار الخبز. وعلاوة على ذلك، ازداد ظلم

على مرسوم القيصر، اعلنت حالة الطوارىء في منطقة تركستان ايضاً. واتخذت تدابير احتياطية تحسباً من حدوث الاضطرابات والفوضى: فرض حظر على نشاطات المنظمات السياسية، واتخذت تدابير معينة بحق السكان المحليين، إذ فرضت ـ مثلاً ـ رقابة شديدة على نشاطاتهم وتحركاتهم، وكانوا يحاولون غرس القومية الروسية في أنفسهم بالاكراه، ويحملونهم على القاء الخطب في المدارس والمساجد، وتمجيد القيصر وحاشيته وأسرته.

كانت تركستان، تزود الجبهة بالقطن والماشية والخبز. وبشكل ملحوظ ازداد دور تركستان، كمصدرة للخامات اللازمة لصناعة النسيج والمعدات العسكرية في روسيا. ونتيجة تقليص حجم السلع المستوردة، وإنتاج القطن في أذربيجان، زيدت في تركستان المساحات المزروعة بالقطن. فمثلاً كانت هذه المساحات في عام ١٩١٤م تبلغ ٥٧٩٢١١ ديساتين، واصبحت في عام ١٩١٥م تبلغ ٦٦٩٤١٧ ديساتين. وبالتالي زاد الحجم الاجمالي للقطن، إذ بلغ في عام ١٩١٥م، ٦١ مليون بود (١٨,٥ مليون بود من الياف القطن).

لابد لنا هنا من الاشارة إلى أن زيادة المساحات المزروعة بالقطن، لم تكن نتيجة استثمار اراض جديدة أو استصلاحها، بل كانت تحصل على حساب الاراضي التي كانت تزرع بالحبوب والقرعيات وأعلاف الماشية. وعلى سبيل المثال فقد ارتفعت نسبة زراعة القطن في سنوات الحرب إلى ٧٥ ـ ٨٠٪ من مجمل الاراضي الزراعية في بعض القرى، وفي قرى أخرى بلغت هذه النسبة من ٩٠ إلى ١٠٠٪. ولقد ادى الغاء زراعة المحاصيل الزراعية الأخرى، الى ارتفاع أسعار الخبز وتبعية مربي الماشية إلى المناطق الأخرى. فمثلاً ازدادت اسعار الخبز في عام ١٩١٦م، بالمقارنة مع ما كانت عليه في عامي ١٩١٣ ـ ١٩١٤م، بمعدل أربعة اضعاف. كذلك ارتفعت اسعار السكر والحبوب والتبغ والثقاب، والسلع الاخرى كالأحذية والثياب والأقمشة القطنية. فمثلاً، ارتفعت أسعار السكر في عام ١٩١٦م بنسبة ٢٥٠٪، والثياب بنسبة ٢٠٠ ـ ٣٠٠٪ والأحذية من ٣٠٠ ـ ٤٠٠٪. فكانت حياة الكادحين تزداد سوءاً وتدهوراً.

لكن عملية التمرد التي أقلقت الادارة الروسية قلقاً شديداً، هي التى عرفت بـ«تمرد الكوليرا» في طشقند عام ١٨٩٢م، تَلَتْها «انتفاضة أنديجان» ١٨٩٨م، ثم عصيان عام ١٩١٦م (للمزيد عن الحركة الأخيرة، انظر لاحقاً).

شكل الفلاحون والرعاة وفقراء المدن، والمستاؤون من سياسة الضرائب المفروضة من قبل الادارة القيصرية، والمضطهدون على ايدي الاغنياء المحليين والمسؤولين الروس، قوام حركات التمرد.

لقد تم القضاء على هذه الانتفاضات ونظيراتها الأخرى من قبل الادارة القيصرية، حيث استخدم السلاح في القضاء على بعضها كـ «تمرد الكوليرا» في طشقند، وانتفاضة انديجان في عام ١٨٩٨م.

فمثلاً، أدى القضاء على «تمرد الكوليرا» في طشقند، إلى قتل ثمانين شخصاً، واصدرت المحكمة العسكرية أحكاماً بمدد مختلفة من السجن بحق ستين شخصاً، كما اصدرت حكمها بالإعدام على ثمانية اشخاص. وفي اعقاب القضاء على انتفاضة انديجان اعتقل سبعمئة وسبعة وسبعون شخصاً شنق تسعة وتسعون منهم. وحكم بالاعمال الشاقة في سيبيريا ولمدد مختلفة على ثلاثمئة وستة وثمانين شخصاً. أما قرى طاجيك و كاشغار، وكوتشي في قضاء مينغ ـ تيبا (مرحماتسكي) التي كانت مراكز الانتفاضات الضخمة، فسوّيت بالارض، وطرد أهلها منها. وجدير بالذكر أن الادارة القيصرية شددت قبضتها فأصبحت أكثر ضراوة وصرامة، إذ استبدلت رجال البوليس المحليين بآخرين من الروس.

وكما هو معلوم، كانت الحكومة النمساوية ـ الهنغارية قد أعلنت الحرب على الصرب في ١٥ يوليو ١٩١٤م. وكان سبب ذلك مقتل ولي عهد الامبراطورية النمساوية الهنغارية ـ الايكتس هيرتسوغ فرانس فيرديناد في ١٥ يونيو ١٩١٤م في سراييفو. أما السبب الرئيسي، في اندلاع الحرب العالمية الاولى فيكمن في سياسة الدول الامبريالية: الامبراطورية النمساوية الهنغارية ، انجلترا، فرنسا وروسيا، الرامية إلى تقسيم العالم، ونيل مستعمرات جديدة، وفرض سيطرتها على العالم.

ونظراً لدخول روسيا في هذه الحرب، وتورّط مستعمراتها فيها ايضاً، وبناء

في طشقند، واصطدامات في نامنغان من اجل السكر، وما الى ذلك من الاضطرابات والعصيان.

وكانت أعظم الانتفاضات في تركستان تلك التي جرت في شهر يوليو ١٩١٦م، والتي دخلت التاريخ باسم «انتفاضة عام ١٩١٦». انطلقت الانتفاضة احتجاجاً على تعبئة الرجال للعمل في الخطوط الخلفية للجبهة، بدءاً من خوجند في ٤ يوليو ١٩١٦، وسرعان ما شملت تركستان قاطبة: محافظات سمرقند، فرغانة، وسرداريا (طشقند)، كما امتدت إلى القرى القازاخية والقيرغيزية. وعلى العموم فقد كانت انتفاضة عام ١٩١٦ انتفاضة شعبية عامة، ضد الحرب والحكم القيصري.

قررت الادارة القيصرية في تركستان سحق الانتفاضة بقوة وعنف، فقام الحاكم العسكري أ. ن. كوراباتكين (١٩١٦ - ١٩١٧م) بفرض الاحكام العرفية واعلان حالة الطوارئ. وللقضاء على الانتفاضة استدعى افواجاً وكتائب من المناطق الحدودية: ترمذ، مرو وكوشكاخ، فضلاً عن الحاميات والشرطة المحلية. وأُصدرت الأوامر للفصائل العسكرية بسحق الانتفاضة بقوة السلاح، فراحت هذه الفصائل تطلق النار مباشرة وعن كثب، وبصورة وحشية بدون أي رأفة او شفقة على أحد، وأحرقت القرى. فمثلاً، في ١٠ يوليو ١٩١٠ قتل «أحد عشر» شخصاً وجرح خمسة عشر؛ آنذاك، أطلق القوزاقيون النار مباشرة على المستائين، فقتلوا خمسة أشخاص، وجرحوا خمسة عشر. وفي منطقة ربض «جيزاك»، استخدمت إحدى الفصائل التي كان يقودها المقدم فودوبيانوف، المدفعية لقمع «المتمردين». ونكّلت القوات القيصرية بسكان تشيمباي (محافظة سمرقند)، في ١٥ يوليو. وقد أخفقت محاولة القضاء على الاضطرابات، وحمل سكان تركستان على الامتثال للمرسوم القيصري الصادر بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩١٦م. نص هذا المرسوم على حمل الرجال من المدن الأخرى للامبراطورية، على العمل في إقامة الاستحكامات العسكرية وحفر الخنادق في منطقة القتال، وإنجاز الأعمال الأخرى اللازمة للدفاع عن الدولة. أعقب ذلك موجة جديدة من الانتفاضات استمرت حتى بداية شهر أغسطس من ذاك العام، وشملت محافظات طشقند، سمرقند، وسرداريا. وفي هذه المرة ايضاً نكلت الفصائل

وهنا تجدر الاشارة إلى نقطة أخرى، ألا وهي زيادة عدد سكان تركستان خلال الفترة من عام ١٩١٤ إلى ١٩١٦م، وذلك نتيجة قدوم اعداد كبيرة من اللاجئين من المناطق الواقعة على الجبهة، واعداد أخرى من الأسرى العسكريين؛ إذ بلغ عدد هؤلاء الأسرى حتى ربيع ١٩١٦م حوالي ٢٠٠ ألف أسير، أما عدد اللاجئين فوصل إل ٧٠ ألف نسمة، فاستقبلت طشقند وحدها ٤٥ ألف من الأسرى العسكريين و ١٣,٥ ألف من اللاجئين، معظمهم من النساء والأطفال، ما أدى الى ازدياد سوء الاحوال المتردية لدى الناس البسطاء.

ومن أجل إخماد موجة السخط التي عمت الجماهير، ولمنع وقوع الاضطرابات والقلاقل، شددت الادارة القيصرية الرقابة، واوجدت اضافة إلى رجال البوليس، إدارة عرفت بـ«الادارة البلدية».

ازداد استغلال الشعب الكادح اعتباراً من بداية ١٩١٥م. إذ فرضت ضرائب إضافية تعادل ٢١٪ من مجمل الضرائب كافة، لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية. وبحجة تقديم المساعدة للجبهة، بوشر بجمع «التبرعات من أجل الوطن»، واعتباراً من شهر يونيو ١٩١٦م عمد الروس إلى تعبئة الرجال القادرين على العمل في الخطوط الخلفية. وتضاعفت نشاطات المسؤولين عن تأمين الخامات والمواد الغذائية اللازمة للمصانع والجيش، وازداد عدد المبتزين بمختلف ألوانهم وأصنافهم، وانتشرت الرشاوى على نطاق واسع، واستخدمت المناصب من أجل المآرب الشخصية. وقد ادت كل هذه الضغوطات مجتمعة إلى انفجار شعبي عام. وفي عام ١٩١٥م، بدأت الاضرابات التي اعلنها عمال المصانع وسكك الحديد في بخارى واندیجان ونامنغان، وكثرت الاحداث «المخلة بالنظام والاستقرار الاجتماعي»، وازداد اهتمام الفلاحين بالاحداث الجارية على الجبهة، وراحت الصحف تتحدث عن الاخطار المحدقة بالمصير السياسي للبلاد.

باختصار، واعتباراً من النصف الثاني لعام ١٩١٥م، بدأ السخط الشعبي على الادارة القيصرية، واصحاب المصانع والتجار يتعاظم ويزداد حدة. وفي سنة ١٩١٦م سادت تركستان برمتها «اضطرابات تموينية»، وجرت «انتفاضة نسائية»

وتطور علم التاريخ تطوّراً كبيراً، إذ كان في بخارى عدد من المؤرخين أمثال: عبد الرحمن تامكين البخاري (المتوفى عام ١٩١٨م)، وأحمد داينش (١٨٢٧ ـ ١٨٩٧م)، مير عليم البخاري (كان لا يزال على قيد الحياة عام ١٨٨٥)، ميرزا عبد العظيم سليم بيك (عاشق في ثلاثينات القرن العشرين) وغيرهم.

وفي كتاب عبد الرحمن تالكين (يقع في ٤٥٣ صفحة) «مطالع الفاخر ومطالب الظاهر» في التاريخ الجغرافي نجد معلومات عن بناء مسجد «كالان» في بخارى، والكوارث الطبيعية التي حصلت في بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلدان، وعن الخانات وعشرات التومانات البخارية، وغيرها.

ويحظى بمكانة خاصة بين مؤرخي بخارى، المؤرخ دانيش الذي وضع عدداً من المؤلفات، مثل «نوادر الوقائع»، «ترجمة أحوال أمير بخارى» يتحدث فيه عن تاريخ المنغيت.

وعن قضايا الفلسفة والأخلاق، والحياة الاجتماعية السياسية، ومستوى الثقافة («حادثة نادرة جداً»)، و«رسالة في نظام الدولة» ... الخ.

ومن مؤرخي بخارى المشهورين، نذكر ميرزا عبد العظيم سامي، الذي ألف كتاباً قيّماً في التاريخ بعنوان «تحفة الشاه»، يشتمل على عرض لتاريخ أسرة المنغيت الحاكمة، اعتباراً من محمد رحيم خان (١٧٥٧ ـ ١٧٥٩م) وحتى السنة الرابعة عشرة (١٨٩٩) من حكم الأمير عبد الاحد خان (١٨٨٥ ـ ١٩١٠م)، كما تصادفنا في الكتاب المذكور آنفاً، حقائق طريفة مهمة عن القصص والأحداث التي كانت تجري يومياً في القصر، وعن عيوب بعض الأمراء ورجال الدولة وكبار المسؤولين.

ونذكر من المؤرخين البخاريين البارزين المؤرخ سعيد محمد ناصر، الذي كان موضع سخط أبيه الأمير مظفر (١٨٦٠ ـ ١٨٨٥م)، والذي ترك من بعده عدداً من المؤلفات القيمة التي تشتمل على السير والتاريخ: مثل «تحفة الزائرين»، «كنوز الاتقياء»، «آثار السلاطين» وغيرها من المؤلفات. ومن أهم مؤلفاته نشير الى كتابه«تحقيق في قنطرة بخارى وسلاطينها وامرائها» حيث يجري الحديث عن

الروسية بالمتمردين كما حصل في المرة السابقة.

إلا أن النار والحديد وحرق البيوت والقرى وأعمال العنف جميعها، لم تستطع إيقاف الشعب الثائر، الذي استمر في انتفاضته وثورته. وفي نهاية، المطاف اضطرت قيادة أركان الجيش الروسي إلى إيقاف حملاتها التأديبية. أما الادارة القيصرية في تركستان فاضطرت مؤقتاً إلى إيقاف عملية تجنيد السكان المحليين للخدمة في الخطوط الخلفية. بيد أن الحاكم العسكري لمنطقة تركستان اصدر في ٢٣ اغسطس ١٩١٦م أمراً باعادة عملية التجنيد؛ واستمر الأمر على ذلك حتى ثورة شباط (فبراير) ١٩١٧م. إلا أن نسبة التجنيد كانت اقل مما كانت عليه.

وعلى الرغم من إخماد انتفاضة عام ١٩١٦، في نهاية الأمر، فإنها تركت أثراً كبيراً على مستقبل التطور السياسي في المنطقة، اذ عجّلت في إحداث التأزم في بنية النظام القيصري، وأثرت بصورة ملموسة على الوضع السياسي في آسيا الوسطى وكازاخستان عشية ثورة فبراير ١٩١٧م.

العلم والأدب والفن والاجتماع السياسي لدى شعوب أوزبكستان في النصف الثاني من القرن ١٩ وبداية القرن العشرين

أدخلت الادارة القيصرية الاستعمارية بعض التعديلات على قانون الأراضي والمياه، وأجرت تغييراتٍ جزئيةً على نظام الضرائب، إلا أنها لم تمسّ العادات والتقاليد.

يلاحظ من خلال المؤلفات المخطوطة التي وصلتنا، أن العلوم في مدن تركستان المستعمرة: بخارى، خيوة وخوقند كانت تتطور في ميادين الرياضيات وعلم الفلك، والتعدين والطب والتاريخ والفلسفة، وكُتبت أبحاث في الرياضيات «خلاصة الحساب»، وفي الفلك «منظر الكواكب»، وفي الطب «جامع الفوائد في الطب» و«عين اللذات ومائدة الهبات» و «شرح ميزان الطب»، وفي الفقه «تحفة الأمير» و«رسالة في الوصية» وغيرها.

الدولة» و«شاهد الإقبال». تناول فيها تاريخ خوارزم (١٨٢٥ـ١٨٦٥م).

أما تاريخ خوارزم لما بعد تلك الفترة، فجاء في الكتب التالية:

«جنينة السعادة» لملاّ حسن مراد قاري، المشهور في الوسط الأدبي باسم «كامكار العشاق»، (تاريخ التأليف عام ١٨٨٦م)، ويجري فيه عرض للاحداث الاجتماعية السياسية في خوارزم، إبان حكم اصفان ديارخان (١٩١٠ـ١٩١٨م).

«شجرة نسب ملوك خوارزم» للمؤرخ الكبير باباجان بيك «بياني» (المتوفى عام ١٩٢٣م)، وهو عبارة عن كتاب في التاريخ العام اعتباراً من عهد آدم وحتى عام ١٩١٤م، ركز المؤلف فيه اهتمامه الرئيسي على شجرة نسب الملوك الخوارزميين.

وكتب سيد حكيم جان تورا «كيّاب»، شاعر ومؤرخ بلاط محمد رحيم خان الثاني (١٨٦٥ـ ١٩١٠م)، كتاباً تناول فيه سير خانات خيوة في ق ـ ١٩م، بعنوان «تواريخ خواني» (تاريخ الملوك، أي ملوك خوارزم).

وثمة كتاب آخر صغير الحجم، تجدر الاشارة اليه، وضعه جمعة نيازحاجي الخوارزمي (المولود عام ١٨٧٨م) بعنوان «رسالة»، وهو ذو أهمية خاصة لدراسة تاريخ خانية خيوة أيام حكم اصفان ديار، ولاسيما فيما يتعلق بأحداث عام ١٩١٩م.

هنا ينبغي القول إنه في ق ١٩م وبداية ق ٢٠م، وبتكليف من محمد رحيم خان الاول (١٨٠٦ـ ١٨٢٥م) والله قلي (١٨٢٥ـ ١٨٤٣م) واصفان ديارخان، ترجم إلى اللغة الاوزبكية عدد من المؤلفات الضخمة في التاريخ، من اللغة العربية والفارسية، منها: «الكامل في التاريخ» (يتألف من عشرة مجلدات) لمؤرخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر إبن الأثير. والمؤلف الضخم «روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» لميرخوند (١٤٣٣ـ١٤٩٧م). وكتاب «شيباني نامه» لكمال الدين بنائي (١٤٥٣ـ ١٥١٢م)، وهو كتاب صغير من حيث الحجم، ولكنه ذو أهمية وقيمة علمية، ثم كتاب «بدائع الوقائع» لزين الدين واصفي (١٤٨٥ـ ١٥٥١م).

في علم تاريخ آسيا الوسطى (ق ١٨ ـ ١٩م) يحتل علم تاريخ خوقند مكانة

قنطرة بخارى منذ بنائها، وعن قصورها ومساجدها وأحيائها ومعالمها الأخرى، إضافة إلى معلومات عن أسوار مدينة بخارى.

وهنا، تجدر الإشارة إلى المؤلَّف القيم الذي لم يحظ بدراسة كافية، ألا وهو كتاب الملا عباد الله والملا محمد شريف وعنوانه «تاريخ الأمير حيدر»، الذي يحتوي على عرض مفصل لتاريخ خانية بخارى في الربع الاول من القرن ١٩م. وقد ترجمه الى اللغة الروسية أ. أ. سيمينوف (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨) الا أنه لم يصدر لاسباب مجهولة.

وفي ق ـ ١٩م أُلِّف في بخارى عدد من كتب الرحلات عن البلدان المجاورة، مثل إيران وأفغانستان، والجزيرة العربية، نذكر منها: «غرائب الاخبار في عجائب الأسفار» لقاري رحمت الله البخاري، و«تحف أهل بخارى» لميرزا سراج الدين، و«سفرنامائي قاضي هادي خواجه آز بخاري با ايران»، وتحتوي على معلومات طريفة، عن الحياة والأوضاع الاجتماعية السياسية في البلدان المذكورة، وعن شعوبها ومعالم مدنها.

كذلك كان علم التاريخ متطوراً في خوارزم، إذ واصل المؤرخون السيْر على التقاليد القديمة، التي بدأها ابو الغازي خان (١٦٠٣ ـ ١٦٦٤م)، ووضعوا تاريخ بلادهم مدوناً سنوياً. وهنا، نشير إلى كتب شير محمد «مونس» (١٧٧٨ ـ ١٨٢٩م) وابن أخيه محمد رضا «آغاهي» (١٨٠٩ ـ ١٨٧٤م) التي كانت تحتل مكانة بارزة بين سائر المؤلفات.

باشر مونس بكتابة تاريخ خوارزم منذ العصور الغابرة وحتى تتويج خليفة الله قلي خان (١٨٢٥ ـ ١٨٤٢م). الا أنّ وفاته المفجعة حالت دون إتمامه للكتاب، ولم يتمكن من التأريخ إلا بدءاً من السنة السابعة (١٨١٢م) من حكم محمد رحيم خان الاول، وقام بإتمامه آغاهي (١٨٤٠م) والكتاب معروف بعنوان «فردوس الإقبال».

كان آغاهي من اكثر مؤرخي خوارزم إنتاجاً: إذ كتب خمسة مؤلفات في التاريخ: «رياض الدولة»،«زبدة التواريخ»، «جامع المقامات السلطانية» «جنينة

حتى عهد سعيد نصر الدين خان (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦م). ومن الأمور القيمة تطرق المؤلف إلى عملية محاصرة الروس لطشقند و مرجيلان و نامنغان و انديجان، وسمرقند واحتلالها، و الى طوبوغرافيا ومعالم طشقند وضواحيها.

يستدل بالمراجع التي وصلتنا (دواوين مختلف الشعراء والمؤلفات في السير) على أن الحياة الأدبية في آسيا الوسطى في القرن ١٩، شهدت نشاطاً عظيماً.

وفي القرن ١٩م عاش في بخارى عدد كبير من الكتاب العباقرة الموهوبين، وحسبنا أن نذكر منهم الشعراء والادباء: حشمت، مجرم عابد، شوقي كاتاكورغاني، مير شمس الدين البخاري، أفضل مخدوم بيرماستي وميرزا محمد شريف «صدر ضياء»

لقد سُجن مير صديق «حشمت» ـ ابن الأمير مظفّر (١٨٦٠ ـ ١٨٨٥م) الذي غضب عليه أبوه، ولم يطلق سراحه الا بعد انقلاب عام ١٩٢٠م، وسرعان ما توفي في الغربة. ترك حكمت ديوان شعر ـ احدى قصائده محفوظة في معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية ـ واشتهر كشاعر واديب ناقد، وله تذكرة بعنوان «نامي خسروان» (التذكرة معروفة أيضاً بعنوان آخر: «تذكرة سعيد مير صديق تورا حشمت»)، تحتوي على تراجم ونماذج ابداع حكام آسيا الوسطى وايران اعتباراً من ١٤٩٥م وحتى تاريخ تصنيف المؤلَّف (فرغ منه عام ١٩١٤م).

ومن أدباء بخارى البارزين في القرن ١٩، وشعرائهم، الشاعر محرم عابد (اسمه الحقيقي عابد خواجه ابن مبارك خواجه)، المولود في اواسط ق ـ ١٨م في قرية كوموشكينت الواقعة في ناحية وابكينت، درس ببخارى في مدرسة ميرعرب، عاش حوالي ثمانين سنة وتوفي في ثلاثينات ق ـ ١٩م. له غزليات، مُعَمَّيات، ورباعيات ـ وله ديوان شعر (نسخة منه محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية).

ـ شوقي كاتّاكورغان (اسمه الحقيقي محمد شريف) ترك أثراً ملحوظاً في الحياة الأدبية في بخارى القرن الماضي، ولد شوقي عام ١٧٨٥م في قرية اليجان،

خاصة. ومن المؤلفات التي وضعت في المدن الخوقندية ـ انديجان، طشقند ومدينة خوقند ذاتها، نذكر ما يلي:

ـ «تاريخ شاهروخ» لملاّ نياز محمد الخوقندي (تاريخ التأليف ـ عام ١٨٧١م) ويحتوي على تاريخ فرغانة منذ عهد مؤسس خانية خوقند شاهروخ بي (١٧٠٠م) وحتى نهاية ق ١٩ م، صدر المؤلّف عام ١٨٨٥م من قبل ن. ن. ناتوسوف. وفي عام ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م ترجمه الى الروسية على شكل ملخصات ف. ف. بارتولد وما ليتسكي. ودرس المؤلّف دراسة عميقة مؤرخنا ت. ك. بيسيمبييف.

ـ «تاريخ مكمل فرغانة» لمحمد فضل بيك. وصنّف بتكليف من الحاكم العسكري لفرغانة أ. إ. غيبوس، ويشتمل الكتاب على تاريخ خانية خوقند منذ تأسيسها، وحتى عهد خان خوقند ما قبل الخان الأخير حيدر خان.

ـ «أنساب السلاطين وتواريخ الخواقين» ـ تاريخ فرغانة اعتباراً من ق ١٥ وحتى وقوع الخانية الخوقندية تحت الاحتلال الروسي (عام ١٨٧٦م)، والكتاب من تأليف الملا ميرزا عليم بن داملا ميرزا رحيم طشقندي.

ـ «حدائق الأنوار» ـ تاريخ فرغانة (الخانية الخوقندية) عهد عمر خان (١٨٠٩ ـ ١٨٢٢م) ومحمد علي خان (١٨٢٢ ـ ١٨٤٢م) قام بتصنيفه الملا الخوقندي ـ يونس شيغاول دادخاه.

إن فترة محمد علي خان المشار إليه آنفاً، ذات أهمية تاريخية خاصة. إذ إنها تقدم تاريخي عندليب ومطرب بعنوانين متطابقين «شاه» «نامه» (كتاب انتصارات الشاه). ومن الكتب القيمة ايضاً «جانغ نامه» (كتاب الانتصارات) للشاعر النامنغاني شوقي (صنف عام ١٨٥٣م). وتصف هذه القصيدة انتفاضة الكيبتشاكيين وقضاء حيدر خان عليها.

ومن الكتب ذات الأهمية التاريخية الكبيرة، ذلك الكتاب الذي ألفه المؤرخ الطشقندي محمد صالح بعنوان «تاريخ طشقند الجديد»، والذي يقع في مجلدين؛ وتجدر الاشارة إلى المجلد الثاني منه، حيث يجري الحديث عن تاريخ خانية خوقند

الأوزبكية)، صدر في خيوة عام ١٩٠٩م.

- محمد رحيم خان الثاني، الذي انتحل اسماً ادبياً مستعاراً «فيروز»، وترك اثراً شعريا ضخماً عبارة عن ديوان يضم أشعاراً حظيت آنذاك وما تزال تحظى حتى يومنا هذا، بشعبية كبيرة. إلا أنه أيام السلطة السوفييتية، حيث كانت تسود الافكار الماركسية، كانت ستائر النسيان قد اسدلت على اسم هذا الشاعر العظيم، الذي قدم الكثير من اجل الثقافة والتنوير.

وأخيراً ينبغي لنا الاشارة ايضاً الى ثلاثة من شعراء خوارزم البارزين، إضافة إلى ما أوردنا آنفاً، ألا وهم: خالص، كميل الخوارزمي ودعن خالص (اسمه الحقيقي محمد يعقوب خواجه بن ابراهيم خواجه عاش في النصف الثاني من ق - ١٩م). اشتهر بغزلياته وقصائده ورباعياته، وصدر له ديوان شعر إبان حياته عام ١٨٨١م.

- كميل الخوارزمي (١٨٢٥ - ١٨٩٩م)، اشتهر كشاعر بارز وكخطّاط وموسيقي ومترجم، وخدم في قصر محمد رحيم خان الثاني برتبة ميرزا - باشي، ثم رقي إلى ديوانبيغي. جال في البلاد العربية وتركستان وروسيا وزار مدن طشقند، موسكو، وبترسبورغ. ذاع صيته واكتسب شعبية واسعة، لدرجة أنه كان بالامكان مطالعة اشعاره في الكتب والدواوين كافة. وبعد وفاته ترك ديواناً ضخماً (نسخة عن الديوان محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية، وتتألف من ١٤٠ صفحة) يشتمل على مثنوي، قصائد، تواريخ ومخمسات، عارض فيها أشعار نوائي، مونس، اغاهي، فيروزه وداعي.

- داعي (اسمه الحقيقي حاجي يوسف آخوند). شاعر مخضرم عاش في النصف الثاني من القرن - ١٩ و بداية ق - ٢٠م، تلقى علومه في بخارى، وعمل مدرساً في مدرسة عرب محمد خان في خيوة. وكان ديوانه - الذي يحتوي على غزليات ومستزادات ومخمسات (يعارض فيها أشعار نوائي وفيروزه) - يلاقي رواجاً كبيراً لدى القراء.

ناحية كاتّاكورغان، أنهى الدراسة في مدرسة غاوكاشان ببخارى، زاول الزراعة وتعليم اطفال قريته، ونقلاً عن الناقد عبد الحميد ماجدي، ألف ديوان شعر، الا انه لم يصلنا للأسف.

الشاعر الملحمي البارز ميرزا قربان «حرامي»، المولود عام ١٨٩٦م بقرية «كتاب» في أسرة مارست حرفة دباغة الجلود وكان يحظى بمكانة وشعبية كبيرتين. درس ميرزا قربان في مدرسة «مير عرب» ببخارى، ومارس مهنة الدباغة كوالده، كما مارس الطب ونسخ الكتب، وتوفي في ستينات القرن ١٩ م. له ملاحم شعرية لاقت رواجاً كبيراً لدى الجماهير، مثل: «تشار درويش» (الدراويش الأربعة)، «وعنة وزيبا»، «طوطى نامة» (رواية الببغاء) و «مخفيلار» (زينة المجالس).

لقد خطا الشعر خطوات واسعة في خوارزم ايضاً، وكان من أبرز شعرائها في القرن ـ ١٩م الشاعران والمترجمان مونس وآغاهي ومن اشهر دواوينهما: «مؤنس العشاق» لشير محمد مؤنس (ألّفه عام ١٨٠٤ ـ ١٨٠٥م) و«تعويذ العشاق».

ومن ابرز شعراء خوارزم في القرن التاسع عشر نذكر: راجي، ميرزا، فيروزه وشيناسي.

ـ اسم راجي الحقيقي محمد يوسف مخدوم. كان شاعراً موهوباً، ترك ديواناً (نسخة عنه محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم الاوزبكية) يحتوي على غزليات، مستزادات، مخمسات، وقصائد مكرسة للخان محمد رحيم الثاني، وصدر الديوان في خيوة عام ١٨٧٩م.

ـ محمد رسول ميرزا ـ باشي (المتوفى عام ١٩٢٢م): ترك ديوان شعر يحتوي على غزليات، مسدسات، رباعيات (سجلات تاريخية)، قصائد ، رباعيات ومثنوي (نسخة جيدة عن الديوان محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الاوزبكية، تتألف من ٩٥ ورقة).

ـ شيناسي (اسمه الحقيقي شيخ نظر ـ بي ابن محمد مراد) ـ شاعر خيوي، ترك ديوان شعر (نسخة عنه محفوظة في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم

الوسطى. كان ديوانه الشعري يحظى برواج منقطع النظير بين القراء المعجبين بأشعاره. وصلتنا نسخة من ديوانه (لعلّها نسخة اصلية مكتوبة بخطه) صنفت في مدرسة محمد علي خان، وهي محفوظة الآن في مكتبة معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم.

- راجي المرغيناني (خواجه - جان)، ولد في مرغينان، شاعر مشهور عاش في النصف الثاني من ق - ١٩م وبداية ق - ٢٠م. له أشعار عاطفية، وأخرى في الهجاء والتاريخ، وديوان شعر ايضاً.

- قاري (مَلاّ مير محمد بن ملاّ مير شمس الدين خوقندي)، نال شهرة واسعة كشاعر واقعي. الا ان معظم غزلياته تتسم بطابع صوفي. له ايضا مخمسات عارض فيها جامي و حفيط و مشرب وأميري (عمر خان) وبيدل وغيرهم، من مؤلفاته وصلنا ديوانه (نسخة أصلية) الذي جرى نسخه عام ١٩٠١م، وهو محفوظ في مكتبة معهد الاستشراق - أكاديمية العلوم الأوزبكية.

وفي بخارى وخيوة وخوقند كتبت عدة مختارات شعرية. إذ ظهرت في بخارى - مثلاً - في ق ١٩م مختارات شعرية لحاجي عبد العظيم شرعي، أفضل مخدوم بيرماستي، صدر ضياء، ومير محمد صديق.

وكما جرت العادة، كانت «تذكرة - او مختارات - حاجي عبد العظيم شرعي تعرف لدى العامة بـ «تذكرة الشعراء»، وتحتوي على معلومات عن شعراء بخارى الناطقين باللغة الفارسية، في عهد أمير مظفر (١٨٦٠ - ١٨٦٨م)، أمثال: اكمل خواجه الطشقندي، إمام مالك صاحب شيخ نقشبندي، إيشان خواجه مفتي بخارى وغيرهم.

وفي «أفضل التذكار في ذكر الشعر والشُّعَار»، الذي كتبه أفضل مخدوم بيرماستي (المتوفى عام ١٩١٥م) في عهد الأمير عبد الأحد (١٨٨٥ - ١٩١٠م)، وردت معلومات عن شعراء ق ١٩م الناطقين بالفارسية.

صدرت هذه المختارات بطشقند عام ١٩١٨م (عدة مخطوطات لهذا المؤلّف

وفي القرنين ١٨ ـ ١٩م كان الادب متطوراً في فرغانة أيضاً، إذ تعدّت شهرة مؤلفات غازي، محروم، جول هاني، عويسي، نادري، حاذق، معدن وغيرهم مدن خانية خوقند إلى خارجها أيضاً، واحتلت مكانة لائقة بها في كنوز الادب الكلاسيكي الاوزبكي. ومن الشعراء الفرغانيين في النصف الثاني من ق ١٩، نشير هنا إلى: مقيمي، فرقان، محيي، راجي المرغيناني وقاري.

ـ مقيمي (اسمه الحقيقي أمين خواجه بن ميرزا خواجه، ١٨٥٠ ـ ١٩٠٣م). شاعر ديمقراطي بارز. سار على أفضل تقاليد الأدب الكلاسيكي الأوزبكي. درس في خوقند وفي مدرسة بخارى، عمل سكرتيراً في مديرية استصلاح الأراضي (١٨٧٦م)، ثم عمل في عام ١٨٧٧م جابياً للضرائب في باروم آق ـ جار، على نهر سرداريا. أمضى معظم حياته في حجرة صغيرة في مدرسة «حضرت».

امتازت أشعار مقيمي بمعظمها بالطابع العاطفي، وفي إبداعه الشعري كان الهجاء يحتل مكانة ظاهرة. كانت اشعار مقيمي ذات رواج عظيم حتى فترة ما قبل «الثورة». ومصنفو الدواوين يدرجونها، بسرور وارتياح، في كتبهم، وينشرونها في نشراتهم الدورية. وفي عام ١٩٠٧م، أصدر ن.ب. استرواوموف ديوان مقيمي في طشقند، ولا تزال اشعار مقيمي تنال الإعجاب حتى يومنا هذا.

ـ فرقات (اسمه الحقيقي زكير جان بن محمد خال ـ محمد (١٨٥٩ ـ ١٩٠٩م) شاعر وكاتب من رجال الادب الاوزبك المرموقين. أنهى الدراسة في مدرسة خوقند. كان يجيد اللغات الفارسية والعربية والروسية، إضافة الى لغة مسقط رأسه ووطنه خوقند، عاش في مرغيلان و طشقند وخوجند؛ ومكث طويلاً (١٨٩١ ـ ١٩٠٩م) في الغربة: تركيا والبلاد العربية والهند و كشمير، وكاشغار.

اشتهر فرقات بأشعاره العاطفية، وكتب مخمسات عارض فيها نوائي، وكان هذا الشاعر في قصائده ومؤلفاته، يسلط الاضواء على أهمية العلم والثقافة.

ـ محيي (اسمه الكامل خواجه محيي الدين بن محمد رضا؛ ١٨٣٥ ـ ١٩١١م). من شعراء فرغانة المرموقين، هروي المولد، إلا أنه أمضى معظم حياته في آسيا

كبير بين القرّاء. وإلى جانب النسخ المخطوطة، ثمة نسخة أخرى مطبوعة صدرت عام ١٩٠٢م.

ولدراسة الشعر في خانيتي بخارى وخوقند في الفترة ما بين ق ١٨ ـ ١٩م. يجدر بالدارس الاطلاع على مختارات قاري رحمت الله «وازع» (المتوفى عام ١٨٩٣م) «تحفة الأحباب في تذكرة الاصحاب» لمحمد شريف شوقي البخاري. وقد صدرت هذه التذكرة في طشقند عام ١٩١٤م.

في مدن خانيات بخارى وخيوة وخوقند، كانت الثقافة الاصيلة والاقليمية في حالة تطور: أنشئت المساجد والمدارس، والأضرحة، وخانات المسافرين، والسراديب، والاسواق المسقوفة، وغيرها؛ وأسطع دليل على ذلك آثار مدينة خيوة.

وللمحافظة على التقاليد العريقة، كان الحرفيون (النحاتون، والنقاشون على الخشب والجص والنساجون والنساء المطرِّزات، وصانعو الحليّ والأواني المعدنية) يطورون الفنون الجميلة. وكانت فنون المنمنمات ايضاً في حالة متقدمة. ووصلتنا المعلومات عن هذه الفنون بفضل المؤلفات المخطوطة مثل: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» لزكريا بن محمد القزويني (حوالى ١٢٠٣ ـ ١٢٨٣م)، حيث توجد صور واقعية وأخرى خيالية. وفي «فتوح الحرمين» لمحيي الدين لاري، يمكننا رؤية مخططات وخرائط مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأضرحة الأولياء، وما الى ذلك...

وكان فن الموسيقى راقياً، إذ حافظ بالدرجة الاولى في تطوره على التقليد الكلاسيكي، ووضعت رسائل وبحوث في الموسيقى النظرية والتطبيقية. ومن مؤلفات ق ـ ١٩م وصلتنا رسالتان في الموسيقى، من غير أن يعرف واضعهما: «رسالة في جواز الاستماع إلى الأنغام والموسيقى المحببة وعزف الدف» و«رسالة قيمة في الموسيقى»، كذلك تطورت فنون الرقص والمسرحيات الهزلية، ومسارح الدمى.

في المجتمع التركستاني في الفترة ما بين ق ١٩ ـ بداية ق ٢٠م، كان بالامكان ملاحظة حركات اجتماعية ثلاث: الإقطاعية الدينية، البورجوازية التجارية الصناعية المحلية، وحركة التجديد. كانت جذور الاقطاعية الدينية تعود الى القرون الوسطى،

محفوظة في مكتبة معهد الاستشراق ـ اكاديمية العلوم الاوزبكية).

في مختارات مير محمد صديق حشمت «نامه خسروان» (رسائل الملوك) تصادفنا معلومات عن شعراء حكام آسيا الوسطى وايران اعتباراً من عام ١٤٩٥م وحتى عصر المؤلِف (نهاية ق ـ ١٩م).

وفي «تحقيرات الشعراء» لقاضي بخارى ـ ميرزا محمد شريف «صدر ضياء ـ جاءت معلومات عن شعراء بخارى في النصف الثاني من ق ـ ١٩ و الربع الأول من ق ـ ٢٠م.

يحتوي هذا المؤلَّف، على معلومات هامة عن الخطاطين المشهورين في آسيا الوسطى وبلدان الشرق المجاورة لها، ولا سيما الجزء الأخير حيث أوردت معلومات عن خطاطي بخارى، إبان حكم آخر أمراء سلالة المنغيت: مظفر وعبد الأحد، وسعيد عليم خان (١٩١٠ ـ ١٩٢٠م).

ومن مؤلِّفي السير والتراجم الخيويين، ينبغي لنا هنا الاشارة إلى أحمد طبيبي (١٨٦٨ ـ ١٩١٠م)، صاحب تذكرتي «الكتاب الجامع لسير ثلاثين من شعراء الشاه فيروز» و«مخمسات مجموعة شعراء الشاه فيروز». المكتوبتين ـ أي التذكرتين ـ في الفترة ما بين ١٩٠٨ و ١٩٠٩م.

في التذكرة الاولى وردت معلومات موجزة عن حياة ثلاثين من شعراء عهد محمد رحيم خان الثاني ومقتطفات من أشعارهم، ونذكر من هؤلاء: سيد نصر تورا وعقيلي وشيناسي ونيازي وخيالي وغيرهم. أما المذكرة الثانية، فعن الشعراء الذين كتبوا مخمسات ومسدسات، عارضوا فيها الشاعرين فيروز ومحمد رضا اغاهي.

ومن التذاكر المكتوبة في خانية خوقند تعتبر «مجموعة الشعراء»، التي وضعها عدد من المؤلفين: فازليسي نامنغاني وميرزا كالندار فكري ومشرف اسفراينا وعبد النبي خوجندي، ذات قيمة كبيرة، فهي تحتوي على مجموعة من المعلومات، المتعلقة بشعراء آسيا الوسطى المرموقين، وشعراء أفغانستان، وشرق تركستان، الذين ابدعوا في الربع الأول من ق ـ ١٩م. و«مجموعة الشعراء» هذه كانت تحظى برواج

الفصل الرابع عشر

أوزبكستان في عهد الحكم السوفييتي

إن إقامة السلطة السوفييتية وآثارها السياسية التشريعية، جرى عرضها، بحسب التاريخ العلمي السوفييتي التقليدي، كما يلي: أثّر انتصار الانتفاضة المسلحة للعمال والجنود في بيتروغراد، وإقامة السلطة السوفييتية فيها، تاثيراً بالغاً على تطور الحركة الثورية في اطراف روسيا، ومن ضمنها تركستان المستعمرة. ففي ١٤ نوفمبر ١٩١٧م، انتصرت الانتفاضة البلشفية المسلحة في طشقند، وكان قد أسهم فيها إسهاماً فعالاً العمال الروس والجنود والعمال المحليون. وقد حكمت السلطة السوفييتية في تركستان اعتباراً من نهاية عام ١٩١٧ وحتى ربيع ١٩١٨م. وفي شهر أبريل ١٩١٨م، أنشئت جمهورية تركستان السوفييتية الاشتراكية، ذات الحكم الذاتي ضمن جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية.

وتحت تأثير ثورة أكتوبر، و«تدابير» السلطة السوفييتية في روسيا وتركستان، تشبعت شعوب خانية خيوة وإمارة بخارى بـ «الروح الثورية»، ما أدّى الى الإطاحة بالحكم في خيوة (في «٢» فبراير ١٩٢٠م) وبخارى («٢» سبتمبر من العام نفسه)، وذلك، طبعاً، بفضل دعم «القوى الثورية» الروسية السوفييتية، التي لعبت الدور الحاسم في ذلك.

كانت الجبهة الشرقية ـ بحسب المصادر البلشفية ـ من أشد الجبهات خطورة على روسيا السوفييتية، ومن ضمن تلك الجبهات التي فتحت قبيل صيف وخريف

وتعبر عن مصالح الإقطاعيين وملاكي الاراضي الكبار. أما حركة البورجوازية التجارية الصناعية المحلية، فظهرت نتيجة التناقض ما بين البورجوازيتين الروسية و المحلية. إلا أنها كانت حركة ضعيفة بسبب تبعيتها للرأسماليين الروس. أما الحركة الثالثة «التجديد»، فكانت قوية بالمقارنة مع الحركتين الآنف ذكرهما. (ظهرت هذه الحركة عام ١٩٠٥م). كانت ذات إيديولوجيا محلية بورجوازية، وأكثر جدية وديمقراطية من الحركتين الآنفتين. وكان أول ما أقدمت عليه، أنها تقدّمت ببرنامج معين واضح: إجراء اصلاحات على نظام التعليم القديم. الغاء بعض البنود في ما يتعلق بـ «نظام الإدارة في منطقة تركستان»، اتخاذ بعض التدابير لالغاء النظام الأمني المتشدد في تركستان، وإيقاف تدفق الفلاحين الروس على منطقة تركستان، والحد من حجم الضرائب والإتاوات المفروضة على السكان المحليين، وما الى ذلك... وكان يتزعّم الحركة اسماعيل غاسبيرين (١٨٥١ ـ ١٩١٤م)، ومنوّر عبد الرشيد خان قاري (١٨٧٨ـ١٩٢٣م)، بيخودي. وكانت هاتان الحركتان تصدران الصحف والمجلات: «الترقّي»، «خورشيد»، «تجار»، «سمرقند»، «سعادة تركستان»، «اينا»، وغيرها من المنشورات التي أسهمت في نشر أفكار، تدعو إلى الحرية والاستقلال الوطني لتركستان.

وقبيل بداية العام ١٩٢٠م، كانت المهمة الاولى - بحسب المخططات العسكرية الاستراتيجية للبلاشفة - تكمن في تطهير منطقة ما وراء القزوين من المتدخلين الإنجليز، وقد أنجزت هذه المهمة في مطلع العام ١٩٢٠م. وفي الوقت نفسه تقريباً، أنزلت ضربة موجعة بقوى البسماتشيين الرئيسية، التي كانت في الحقيقة تمثل الحركة الوطنية التحررية في وادي فرغانة، وفي شهر مارس، تم القضاء على مجموعات الحرس الابيض على جبهة سيميريتشي. وأفسح ذلك كله في المجال لحشد وحدات عسكرية كبيرة لمساعدة القوى «الثورية» في بخارى وخوارزم. وحتى نهاية العام ١٩٢٠م، كان المجموع العام لقوات الجيش الأحمر في تركستان حوالي ١٥٠ ألف مقاتل. وقد أقيمت السلطة السوفييتية في خوارزم نتيجة الدعم المباشر الفعّال من قبل الجيش الأحمر الخوارزمي، الذي أسسه بلاشفة المركز، في شهر نوفمبر ١٩٢٠م. وبعد انقلاب سبتمبر عام ١٩٢٠م، رسّخ الجيش الأحمر اقدامه في بخارى، حيث تمركز حوالي ٢٠ ألف مقاتل من الجيش الأحمر، بلغ عددهم - حتى قبيل العام ١٩٢٣م - زهاء ٤٠٠ ألف. وتجدر الإشارة إلى أن المركز كان قد خطط مسبقاً لدور حاسم يضطلع به الجيش في إقامة السلطة السوفييتية في أوزبكستان. إذ جاء في أحد قرارات مجلس الدعاية الأممية في الشرق ما يلي: «إن اللجنة المركزية لتركستان تعتبر أن حركة (الثوريين) في بخارى يجب أن تكون مجرد مقدمة أولى، أمّا ما تبقّى - أي ما يعادل ٩٠٪ من الأمور - فيجب أن يقوم به الجيش الروسي الأحمر».

وهكذا، لم تكن المزاعم التقليدية للمؤرّخين السوفييت، القائلة ببلوغ الثورة مرحلة النضوج في منطقة تركستان في مطلع عشرينات القرن العشرين سوى مبرر للجوء إلى العنف لإقامة السلطة البلشفية في هذه المنطقة المترامية الأطراف، ذات الأهمية الاستراتيجية، سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، أو بعبارة أخرى لتصدير الثورة الشيوعية إلى آسيا الوسطى.

وهكذا، من طريق العنف، أقيمت في منطقة آسيا الوسطى جمهوريات تركستان، بخارى وخوارزم، ووزّعت كلّ قومية على الجمهوريات الثلاث هذه،

١٩١٨. إذ لوحظ تصعيد ملحوظ في صفوف التركستانيين المناوئين للثورة، والساعين إلى انفصال آسيا الوسطى عن روسيا. وكانت نشاطاتهم تلقى دعماً قوياً من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، اللتين كانتا تسعيان إلى تحقيق خططهما ومصالحهما في آسيا الوسطى. فنظمت في طشقند حركة سرية «الاتحاد التركستاني لمحاربة البلشفية»، بدعمٍ قويٍ من أعضاء البعثة الدبلوماسية البريطانية ف. بيلي، ي. بليكير، وقنصل الولايات المتحدة في طشقند ر. تريدويل وغيرهم. وبحسب اجماع المصادر السوفييتية، كان من أبرز الحركات في المناطق الأوزبكية في تركستان تلك الحركة التي نعتت بـ«البسماتشية»، وهي حركة قومية بورجوازية إقطاعية، كان مقرها الاساسي في وادي فرغانة.

وبحجة المحافظة على الاستقرار، وبناءً على أمر لينين، أرسلت أول مفرزة تتألف من ٦٠٠ مقاتل، مزودة بكميات من الأسلحة والذخيرة، و٣٨ مليون روبل. وفي نهاية العام ١٩١٨م، تأسس مقر لتشكيل الوحدات القومية للجيش الأحمر في تركستان. في حين أخذت المقاومة تتصاعد ضد البلاشفة.

وفي خريف ١٩١٨م، أخذ البسماتشيون يشددون، بشكل ملموس، هجماتهم على قرى ومدن وادي فرغانة. وفي نهاية عام ١٩١٨ وبداية ١٩١٩م، ازدادت نشاطات منظمة الحرس الابيض السري المناوئة للنظام السوفييتي في طشقند. وفي ١٩ يناير ١٩١٩م، حدث تمرد مناوئ للبلاشفة، قام المشاركون فيه باختطاف ٣٤ من ناشطي زعماء البلاشفة، ومن ضمنهم ١٤ من مفوضي تركستان، وأعدموا جميعاً، ما أدّى إلى ازدياد الوضع حدّة وتأزّماً.

وبناءً على مبادرة من زعيم البلاشفة لينين، وفي شهر اكتوبر ١٩١٩م، أرسلت الى تركستان لجنة من مفوضية الشعب واللجنة المركزية التنفيذية لعموم روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية، وضمت اللجنة عدداً من كبار البلاشفة أمثال غ. ف. بوكي، ف. إ. غولوشيكين. ف. ف. كويبشيف، م. ف. فرونزه وغيرهم، إلا أن تدهور الاوضاع ظل مستمراً.

الشعبية الاشتراكية السوفييتية.

لم يكن التقسيم الاداري القومي لتركستان يتماشى والميزات القومية للمنطقة، ولا يتفق ومهمّات تطوّرها السياسي الاقتصادي ضمن الدولة السوفييتية.

فأدى ذلك الى تنشيط عملية احياء مسألة تقسيم آسيا الوسطى إلى عدة جمهوريات قومية، تلك المسألة التي ظهرت للمرة الاولى عام ١٩٢٠. وخلال السنوات الأربع (١٩٢٠ ـ ١٩٢٤)، كانت قد اتخذت بشأن هذه المسألة عدة قرارات من قبل الأجهزة الحزبية الحكومية، إلا أنها كانت في غاية التناقض والتضارب.

وفي عام ١٩٢٤، ولرسم حدود آسيا الوسطى، أسِّست لجنة مركزية اقليمية، شارك فيها ثلاثة ممثلين عن كل جمهورية من الجمهوريات الخمس التي شكلت حديثاً.

وكانت هذه اللجنة ،تضم لجاناً (او مكاتب) مؤقتة أوزبكية، تركمانية، قيرغيزية، كازاخية لرسم حدود جمهوريات آسيا الوسطى. كما اسِّست لجنتان فرعيتان ـ طاجيكية وقارة قالباقية. وحتى مطلع شهر سبتمبر ١٩٢٤ كانت اللجنة الاقليمية المكلفة باعداد مشروع مخطط تمهيدي لتحديد أراضي الجمهوريات، والمحافظات الجديدة، ورسم حدودها، قد فرغت من أعمالها. وفي ٢٧ اكتوبر ١٩٢٤، وافقت الدورة الثانية للجنة المركزية التنفيذية للاتحاد السوفييتي على توصية اللجنة المركزية التنفيذية التركستانية، ومؤتمري سوفيتات عموم خوارزم وبخارى، المتعلقة بالتقسيم القومي لجمهوريات آسيا الوسطى الجديدة ومحافظاتها. وبموجب ذلك، تأسست، بدلاً من جمهوريات تركستان وبخارى وخوارزم، جمهوريتا تركمانيا وأوزبكستان، وقد ضمت إليهما جمهورية طاجيكستان ذات الحكم الذاتي، التي اصبحت في عام ١٩٢٩ جمهورية اتحادية سوفييتية. أما منطقة قاراقالباقستان، ذات الحكم الذاتي، فقد أدرِجت ضمن جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية. وفي عام ١٩٢٥، عقد المؤتمر الثالث لسوفيتات الاتحاد السوفييتي، واتُّخذ قرار بضم جمهورية اوزبكستان إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي.

وفصّلت بينها حدود اصطناعية رسمتها الإدارة الروسية.

وكما هو معلوم كان سكان جمهورية تركستان من الأوزبك (٤١,٥٪)، الكازاخ (١٩,٣٪)، القيرغيز (١٠,٨٪)، والطاجيك (٧,٧٪) وقوميات أخرى. أما سكان جمهورية بخارى فكانوا من الأوزبك (٥٠,٧٪)، الطاجيك (٣١,١٠٪) التركمان (١٠,٣٪) ومن القوميات الاخرى. في حين كان سكان جمهورية خوارزم من الأوزبك (٦١,١٪)، التركمان (٢٣,٨٪)، القاواقالباق (٦,٤٪)، الكازاخ (٣,٥٪)، وقوميات أخرى.

لاقت عملية اقامة السلطة السوفييتية في منطقة تركستان، مقاومة مسلحة عنيفة من قبل القوى السياسية الوطنية، التي كانت تشغل المناصب الاجتماعية والروحية في حياة المجتمع التركستاني. واستمرت هذه المقاومة حتى بعد انتصار الثورة «الشعبية» في بخارى وخيوة. إذ تمركز الأمير السابق سعيد عليم خان وجنيد خان، في مناطق طاجيكستان الجبلية، وفي سهوب قاره قوم، وراحا يبذلان قصارى جهودهما لاستعادة ممتلكاتهما المسلوبة، وفرض سيادتهما عليها مجدداً، وبالتالي تألفت من القوى، التي أبدت مقاومة عنيفة ضد النظام السوفييتي، الحركة الآنفة الذكر، التي عرفت في تاريخ أوزبكستان بحركة «البسماتشيين».

وكانت هذه الحركة ذات تنظيم جيد، ونفوذ كبير، لدرجة أن السلطة السوفييتية لم تتمكن من القضاء على قوّاتها الاساسية إلا في نهاية العام ١٩٢٣م.

كانت التغييرات الجذرية، سياسياً واقتصادياً وروحياً وثقافياً، التي أسفرت عن الثورات «الشعبية» في جمهوريتي خوارزم وبخارى، موجّهة لإعداد الظروف الاجتماعية والسياسية المناسبة في هاتين الجمهوريتين للانتقال إلى نظام اشتراكيّ. وكانت النشاطات السياسية كافة ترمي الى الإسراع في إعلان خوارزم وبخارى «جمهوريتين سوفييتيتين». وقد أنجزت هذه المهمة في خوارزم في شهر اكتوبر ١٩٢٣م، حينما أعلن مؤتمر سوفيتات عموم خوارزم قيام جمهورية خوارزم الشعبية الاشتراكية السوفييتية. وفي شهر سبتمبر ١٩٢٤م، اتخذ مثل هذا القرار في بخارى حيث أعلن مؤتمر سوفيتات عموم بخارى قيام جمهورية بخارى

شعب لدولته المستقلة، وقدرته حتى على الانفصال عن الاتحاد السوفييتي، وإلغاء انواع الامتيازات القومية والدينية كافة، ومنح حرية التطور للأقليات القومية.

إلا أنّ تجربة أوزبكستان، وسائر الجمهوريات القومية الأخرى السوفييتية، اثبتت مدى غياب المنطق في سياسة البلاشفة المتناقضة. والآن تبدو لنا الكلمات التي وردت في نداء مجلس مفوضي الشعب «إلى جميع المسلمين الكادحين في روسيا والشرق» والذي نشر في ٢٢ نوفمبر ١٩١٧، مهزلة لاذعة من مهازل التاريخ، حيث ورد فيه: «... إنّ معتقداتكم وتقاليدكم، ومؤسساتكم القومية والثقافية كافة تعتبر حرة، ولا يحقّ المساس بها. نظّموا حياتكم القومية بحرية بدون عراقيل». أو: «عليكم بناء حياتكم بأنفسكم، كما يليق بكم ويحلو لكم. هذا حقكم، لأنّ مصائركم في ايديكم». تجدر الاشارة الى ان هذا النداء، كان يحمل توقيعي لينين، وستالين الذي اصبح فيما بعد «والد الشعوب».

اما في الحقيقة فقد كانت السلطة بيد نخبة من البلاشفة، لا تنتمي أصلاً الى السكان المحليين الأصليين. وكان معظمهم من أعضاء الحزب الشيوعي الروسي. وبصدد هذا، قال: أ. غولوفانوف كلمة حق: «انتقلت دفة الادارة في تركستان الى أناس بعيدين كل البعد عن السكان المحليّين واحتياجاتهم. وبدافع جهلهم لخصائص المنطقة، وأهمية القضية القومية، راحوا ينتهجون سياسة، تتنافى مبادئها وتتناقض، مع نمط حياة سكان آسيا الوسطى، وتقاليدهم العريقة، التي تمتد جذورها إلى القرون الغابرة».

امتازت الحكومة التركستانية الأولى التي شُكّلت بأنها لم تكن تضمّ أيّ شخص من ممثلي السكان الاصليين. وكانت الإدارات المحلية بإشراف عسكريين، ومنظمات عمالية تتألف غالبيتها من غير السكان المحليين. وبصدد ذلك ذكر بافليوتشينكو، أحد كبار مسؤولي مجلس مفوضي الشعب التركستاني: «إننا نعتبر أنفسنا من الفصائل الطليعية للثورة، ومن مناضليها الواعين المخلصين. وبالتالي فإننا نرى أنه من واجبنا ان نكون قادة للمسلمين، الذين ينقصهم النضج السياسي». وذكر «زعيم» بلشفي آخر بشكل أكثر انكشافاً: «ايها الرفاق المسلمون، عليكم أن تعلموا بأننا بمثابة

وهكذا تكونت جمهورية اوزبكستان، التي تألّف سكانها ـ بحسب إحصائيات عام ١٩٢٦ ـ من ٥٢٦٧٦٢٨ نسمة ينتمون إلى ٩٠ قومية وإثنية، ومن ضمنهم ٣٤٧٥٣٤٠ أوزبكي، ٩٦٧٧٢٨ طاجيكي، ٢٤٦٥٢١ روسي، ١٠٦٩٨٠ كازاخي، ٩٠٧٤٣ قيرغيزي، ٣٤٩٤١ أويغوري، ٢٨٤٠١ تتري، ٢٥٩٥٤ قاراقالباقي، وقوميات أخرى.

وكان رسم الحدود الدولية للقوميات، وتأسيس الجمهوريات القومية «ذات السيادة»، ودخولها ضمن الاتحاد السوفييتي، تُقدَّم من قبل السوفيات للرأي العام العالمي كعملية هدفها تحقيق المساواة بين القوميات والشعوب، وتهيئة الظروف «للشعوب التي عانت من اضطهاد الحكم القيصري» لتحقيق تقدم سريع اقتصادياً وثقافياً». وقيِّمت هذه العملية كأفضل حلٍّ، أوجده الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية للمشكلات القومية في المنطقة.

لكن التطورات اللاحقة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية، أثبتت أنّ اللجنة أخفقت في إيجاد حلّ شاملٍ للقضايا الحدوديّة، حيث أشير الى «ضرورة إجراء رسم جديد دقيق للحدود بعد التشكيل الحكومي للجمهوريات المؤلفة». وبقيت مشكلة الحدود بين بعض جمهوريات آسيا المركزية، من أهم المشاكل وأخطرها خلال ٦٥ سنة من العهد السوفييتي .

لم تكن الأمور كلها على هذا النحو من السهولة، كما كانت الدعاية الرسمية تروّج لها. ولم يكن من السهل إقرار الحقوق الشرعية لـ «الشعوب التي عانت من اضطهاد الحكم القيصري». وكانت الشعارات التي أعلنتها السلطة السوفييتية وحزب البلاشفة في السنوات الاولى لقيام هذه السلطة، الانسانية والديمقراطية والأفكار الأممية، قد بقيت مجرد حبر على ورق، إذ كانت اقوال البلاشفة تختلف عن اعمالهم.

ففي عام ١٩١٧، وكما هو معلوم، أعلن «بيان حقوق شعوب روسيا»، الذي نصّ على مساواة الشعوب وسيادتها، وحقّها في تقرير مصيرها، وتأسيس كل

وفي بداية عام ١٩٢١، اجتمع ممثلو الحركات السياسية المعارضة، في مدينة بخارى، بهدف إيجاد قاعدة مشتركة للنضال الفعلي، واسفر الاجتماع عن ايجاد قاعدة عامة مشتركة للجميع. وفي شهر اغسطس ١٩٢١، عقد في بخارى مؤتمر الوحدة الوطنية، حيث اعلن تأسيس اتحاد الجمعيات الوطنية الاسلامية لـ(جمهوريات) آسيا الوسطى. الذي أبدل اسمه باسم آخر: «الاتحاد الوطني التركستاني». ونتيجة الملاحقة والاضطهاد فيما بعد، اضطرت غالبية اعضاء هذه المنظمة لمغادرة البلاد والهجرة. أما الجزء المتبقي، فاتّحد في منظمة «ميلي اتحاد» (لجنة الاتحاد الوطني)، التي أسست في طشقند في شهر سبتمبر ١٩٢٠، والتي تم القضاء عليها عام ١٩٢٢ على أيدي لجنة الطوارئ.

ولا بد لنا من وقفة على نشاطات ما يسمى بـ «الشيوعيين الوطنيين»، الذين شغلوا بعض المناصب في الاجهزة الحزبية والسوفييتية، وتعاونوا مع البلاشفة الروس، على أمل أن يتمكنوا من استخدام افكار «ثورة» اكتوبر والحزب البلشفي لصالح شعبهم. كان فيض الله خوجايف من ابرز هؤلاء الزعماء المنتمين إلى «الشيوعيين الوطنيين»، والذي القى كلمة في شهر يناير ١٩٢٤ بمناسبة وفاة ف. إ. لينين، في الموكب الجنائزي الذي ضم حوالي ٥٠ ألفاً، وجاء في كلمته: «ان بخارى الكادحة لن تنسى ابداً وصايا فلاديمير ايليتش. وستبذل قصارى جهودها لانجاز هذه الوصايا. إن بخارى تؤمن بانتصار افكار لينين. وثمة زعيم تركستاني بارز آخر يدعى تورار ريسكولوف، كان قد كتب في مقالته المكرّسة لوفاة «الزعيم العظيم» ف. إ. لينين ما يلي: إن وفاة زعيمنا العظيم العزيز يفرض علينا نحن أنصاره في الشرق، ان نرص صفوفنا اكثر فاكثر حول الحزب الشيوعي، والسير بثبات على النهج الذي رسمه لنا فلاديمير ايليتش حول مسائل الفلاحين والاستعمار القومي، وذلك لتقديم مزيد من الدعم، ولتعزيز اتحاد البلوريتاريين مع الفلاحين والثوريين في الشرق.

لكن السياسة العملية للكريملين في آسيا الوسطى، سرعان ما ارغمت الشيوعيين الوطنيين على التفكير جيداً بمصير شعوب المنطقة. وفي بادئ الأمر

الأخوة الكبار. نحن الأكبر، ومن المفهوم انه عليكم الإذعان لنا».

وهكذا يستنتج مما ذُكر ان التأكيدات والدعايات الرسمية كافة، والقائلة بانتهاء عصر الاستعمار الروسي في تركستان بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، لم تكن سوى تصريحات جوفاء. ولم تغير «الثورة» شيئاً في الطابع الاستعماري لادارة المنطقة وتطورها، وظلت مُسخَّرة لاحتياجات روسيا ومصدر خاماتٍ لها.

وعلاوة على ذلك، وبحجة تقديم «المساعدة الأخوية» لادارة المنطقة، أرسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي الى تركستان، ٨٨٩ خبيراً حزبياً سوفييتياً، تسلموا جميع المناصب المهمة في الجهاز الحكومي الحزبي، في منطقة تركستان. وحتى بعد مرور أكثر من ١٠ سنوات على «ثورة» أكتوبر، وفي أواخر عشرينات القرن العشرين، كانت أجهزة الادارة السوفييتية في اوزبكستان، تتألف من أكثر من ٦٠٪ من الروس، وحوالي ٢٥٪ فقط من السكان المحليين.

أثار هذا الوضع استياءً شديداً لدى السكان الأصليين، ما ادى الى ظهور احزاب سياسية مناوئة لسلطة البلاشفة في السنوات الاولى للسلطة السوفييتية. وكان من ضمن هذه الأحزاب«الحزب الاشتراكي ـ ايرك (أي الحرية)». وكان هدفه تحرير تركستان من الاستعمار البلشفي الجديد ومنح شعوب المنطقة حرية تقرير مصائرها. وكان الحزب قد وضع نصب عينيه ـ في ميدان السياسة الوطنية ـ اقامة المساواة بين قوميات وشعوب المنطقة كافة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية السياسية، وتأمين حقوق الاقليات القومية وحرياتهم.

ولكن، كان ثمة حزب معارض آخر مشهور، يحظى بشعبية كبيرة لدى جماهير تركستان، ألا وهو حزب «التجديد». وكان برنامجه اكثر شمولية ودقة من برنامج حزب «ايرك» الآنف ذكره. فأولى اهتمامه القضايا السياسية، وفي طليعتها استقلال تركستان؛ كما ظهرت أحزاب اخرى ذات أهداف مماثلة.

تحقيق الشعوب الأوزبكية لأمانيها، ونيلها لحقوقها القانونية المشروعة.

وكان أهم احداث العشرينات في الميدان الروحي الثقافي للشعب الاوزبكي، يكمن في إبدال الحروف العربية في الكتابة بالحروف اللاتينية عام ١٩٢٩م. لقد ادى الغاء الحروف العربية ـ التي استخدمت في تركستان منذ القرن الثامن في كتابة المؤلفات الأدبية والتاريخية ـ الى إحداث شروخٍ عميقة في التطور الثقافي. فمن ناحية ادت هذه العملية إلى حرمان شعوب هذه المنطقة، ولا سيما الجيل الناشىء، من الاطلاع على التراث العلمي الثقافي الغني، الذي يعد حصيلة ما أنجزه الأجداد خلال العديد من القرون. ومن ناحية اخرى، وكما اثبت التطور اللاحق للسياسة اللينينية الماركسية في ميدان اللغة، مهّدت السلطة البلشفية للانتقال إلى الكتابة الاوزبكية بالحروف الروسية «الكيريلية»، واتّخذ القرار بهذا الشأن عام ١٩٤٠م. ومن وجهة النظر هذه، ومن خلال استخدام الحروف اللاتينية في الكتابة الأوزبكية، يمكننا اعتبار ذلك خطوة لتحويل الكتابة الأوزبكية إلى الروسية.

وعلى كل حال، فإن هذه العملية أدت الى فقدان جزء من التقاليد القومية، وحدّت من امكانية التفاعل الثقافي مع المناطق الاسلامية في العالم، تلك الإمكانية التي كانت محدودة اصلاً من جراء الاوضاع السياسية الخارجية، التي لاتزال قائمة حتى فترة تاريخية قريبة.

تكمن احدى الإمات التي امتازت بها السياسة البلشفية الداخلية من العشرينات الى بداية الثلاثينات من ق ٢٠م، في الدعاية الإلحادية الهادفة في اوزبكستان وسائر مناطق آسيا الوسطى. وهي موجهة بالدرجة الاولى ضد الدين الاسلامي الذي كان سائداً في هذه المناطق، والذي يتجلى نفوذه بجلاء ووضوح في الارقام التالية: في بداية ق ـ ٢٠ كان عدد الجوامع والمدارس الدينية ـ في بخارى وحدها ـ ٣٠٠ مسجد، ١١٠ مدارس دينية يدرس فيها عشرة آلاف طالب، ويُدرِّس فيها اكثر من ٣ آلاف مدرس من مختلف المستويات (بمعدل مدرس واحد لكل ١٠ من السكان البالغين). وفي خوقند حتى عام ١٩١٧ كان يوجد٣٨٢ مسجداً، ٤٢ مدرسة دينية وحوالي ٦ آلاف يعملون في خدمة الدين الاسلامي.

اعربوا عن رفضهم للنقل الاوتوماتيكي لتجربة البناء السوفييتي في مناطق اواسط روسيا، إلى آسيا الوسطى. إلا أنهم لم يرفضوا كلياً أفكار السلطة السوفييتية، وطالبوا بتطبيقها، بشكل يتماشى والظروف الاجتماعية والقومية والثقافية والاقتصادية للمنطقة. وهنا تجدر الاشارة الى الرسالة التي بعث بها، خوجايف الى لينين في يونيو ١٩٢١م، والتي تضمنت اقتراحاً بتطبيق افكار السلطة السوفييتية، مع مراعاة الظروف الخاصة في بخارى. إلاّ أنّ هذا الاقتراح والاقتراحات الأخرى المقدّمة من الشيوعيين الوطنيين، لم تلق اهتمام القيادة العليا للدولة السوفييتية. لكن الشيوعيين الوطنيين لم يتخلّوا عن النهج الذي اختاروه، إذ اعرب احد زعمائهم البارزين - اكمل اكراموف - في كلمة ألقاها عام ١٩٢٣ في اجتماع الموظفين المسؤولين عن الجمهوريات والمحافظات القومية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، بصراحة، أنه لم تجْرِ اي تغييرات في عهد السلطة السوفييتية في تركستان، بالمقارنة مع العهد الاستعماري، سوى تغيير اللائحة واللافتات، وبقيت تركستان على ما كانت عليه، إبان حكم القيصر الروسي.

إن مثل هذه الاعلانات كانت تلقى أصداء عدائية من اللجنة المركزية الشيوعية الروسية، ومن قادة الدولة السوفييتية، وبالتالي شنت حملة من الاضطهادات ضد هؤلاء الشيوعيين الوطنيين، واتهموا بالعنصرية القومية، والتطرف الاسلامي، والتعصّب التركي، والتخريب وهلم جراً. فاضطر جزء من الشيوعيين الوطنيين - ومن ضمنهم شخصيات بارزة امثال: بولات خوجايف، عريفوف، علي رضا وغيرهم - إلى الانضمام إلى «البسماتشيين» وخاضوا النضال المسلح ضد البلاشفة من اجل استقلال تركستان.

وفي ثلاثينات ق ٢٠م، اضطهد جميع الذين كانوا على علاقة بالمنظمات التحررية الوطنية السرية مثل: «ميلي استقلال»، «ميلي اتحاد»، و«اتحاد اسلامي» وأعدم حوالي ٧٠٠٠ شخص معظمهم من المثقفين، وسجن اكثر من ٤١٠٠٠ مواطن في السجون ومخيمات الاعتقال. واستمرت عمليات الاضطهاد اعتباراً من الثلاثينات وحتى خمسينات القرن العشرين، بأفظع أشكالها، وذلك للحيلولة دون

نطاق واسع بإنشاء الكولخوزات والسوفخوزات.

وإذا كان في اوزبكستان «٦٢» كولخوزا و «١٥» سوفخوزاً عام ١٩٢٤، فقد ارتفع عدد الكولخوزات في عام ١٩٢٨ الى ٦٧٨ كولخوزاً. وهكذا يمكننا القول إنّ فترة نهاية العشرينات، وبداية الثلاثينات في اوزبكستان، كانت فترة «كلخزة»، بصورة رئيسية، طبقت بالقوة والعنف.

كانت الخطة الخمسية الثانية، لتطوير الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي، في الفترة (١٩٣٣ ـ ١٩٣٧)، تعتبر مهمتها السياسية الأساسية، هي القضاء التام على العناصر الرأسمالية، لأنها ـ بحسب زعم البلاشفة ـ «تولد استغلال الانسان للانسان». في هذه المرحلة كان من المقرر تشغيل عدد من المشاريع الصناعية الضخمة، ومن ضمنها مجمع تشيرتشيك لصناعة الآزوت، محطة كووراميسك الكهرومائية، وبالدرجة الاولى مجمع طشقند للنسيج، ومصانع نسيج الحرير في بخارى وسمرقند والمدن الاوزبكية الأخرى. وخلال الخطة الخمسية الثانية كانت عملية «الكلخزة» قد أُنجزت تماماً. وفي عام ١٩٣٧ كانت قد ضمت إلى الكولخوزات نسبة ٩٥٪ من اراضي الفلاحين و ٩٩,٤٪ من الحقول الزراعية.

كان الدخل الوطني خلال ٥ سنوات قد تضاعف أكثر من مرتين، وبلغ في عام ١٩٣٧ ملياراً و٤٥٧ مليون روبل، ما اتاح تطبيق مشاريع زيادة بناء المساكن. مثلاً، في عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨م، وُظِّف لبناء المساكن حوالي ٣٠ مليون روبل.

في عام ١٩٣٧، تمت المصادقة على اول دستور لجمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية، وكان نصه مطابقاً تماماً لنص الدستور السوفييتي لعموم الاتحاد السوفييتي، وجاء ذلك تأكيداً قانونياً لـ «انتصار» الاشتراكية في اوزبكستان، التي أعلنت دولة اشتراكية للكادحين والفلاحين، تتألف قاعدتها السياسية من سوفيتات (مجالس) نواب الكادحين، وقاعدتها الاقتصادية نظام اشتراكي وملكية اشتراكية لآلات الانتاج ووسائله، وسلطتها العليا الاسمية المجلس الاعلى لجمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية الاتحادية، في حين بقيت

وقامت السلطة السوفييتية منذ أيامها الاولى، بشنّ حرب شعواء ضد الاسلام. وخلال الفترة من عام ١٩١٨ وحتى ١٩٣٣، تم إغلاق حوالى ٣٦٠٠ مسجد في الاتحاد السوفييتي، إضافة إلى حل جمعيات اسلامية. وكانت معظم المساجد والجمعيات هذه، موجودة في آسيا الوسطى. إنّ الإغلاق الجماعي للمساجد والمدارس الدينية، وعدم رغبة السلطات السوفييتية بالترخيص للاتحادات الدينية في اوزبكستان، كل هذه الأمور كانت توحي بنشر الإلحاد في البلاد. ولكن في الحقيقة، نتج عن مثل هذه السياسة، ظهور منظمات سرية مكرسة لخدمة الدين والتعبّد، تعرف اليوم بالاسلام «غير الرسمي» ـ علاوة على المساجد ـ الاتحادات الدينية، والادارات الاسلامية المسجلة رسمياً.

في ثلاثينات ق ٢٠م وجهت ضربة قوية الى المثقفين الاوزبك، إذ اعدم رمياً بالرصاص آلاف العلماء والشعراء ووجوه المجتمع، من بينهم: عبد الله قادري، تشولبان، فرقات، البيك، باتو وكثيرون غيرهم. وقد فقد الكثيرون منهم دون أن يعثر لهم على أي اثر في سجون ستالين، ومنافي سيبيريا والشرق الاقصى. وقضي على نخبة المثقفين وخيرتهم، ممن كانوا يناضلون من اجل حقوق شعبهم بمختلف الأساليب والسبل.

ما من شكّ ان القيادة العليا في موسكو، أدركت ضرورة تطوير اقتصاد جمهوريات آسيا الوسطى، ومن ضمنها اوزبكستان، وقد أولت، بالدرجة الاولى، الاهتمام تطوير أوزبكستان في الميادين المتعلقة بالزراعة، صناعة الآلات الزراعية، حلج القطن، صناعة الزيوت والألبان، وصناعة الحرير والمعلبات والخمور. خلال الفترة من عام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٨م وظّف في الاقتصاد الوطني الاوزبكي ٧٩ مليون روبل. وفي شهر نوفمبر ١٩٢٥م، اصدر المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي (البلشفي) الاوزبكي قراراً حول الاصلاحات المتعلقة بالأراضي والمياه، يهدف الى الاستيلاء على الاراضي الزائدة الموجودة بحوزة السكان الميسورين، وذلك بذريعة القضاء على مخلفات الاقطاع. وادت الاصلاحات التي جرت (عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٩م)، الى حدوث تغيُّرات ملموسة في البنى الاجتماعية للقرى، إذ بوشر على

ضرورة لإعادة النظر بسرعة في خطط تطوير الاقتصاد الوطني للفترة من ١٩٣٨ـ ١٩٤٢. فبوشر فوراً، بتوجيه الاقتصاد الوطني نحو الانتاج الحربي، وتعبئة الطاقات العاملة، والموارد الاقتصادية، لتلبية متطلّبات الحرب.

لقد حارب على جبهات الحرب العالمية الثانية زهاء مليون مواطن اوزبكي، إذ شاركت في الحرب الوطنية العظمى وحدات عديدة شكلت في اوزبكستان ومن ضمنها ٩ الوية مشاة من الاوزبك، و٥ حاميات من الفرسان، الـ «٤٤» و «٢١»، من الفرسان الأمميين من مختلف القوميات، والـ «٣٨٩» و«١٦٢» مشاة من قوميات مختلفة، والـ ٣٦ والـ «٣٩»، من طلاب الكليات العسكرية، وغيرهم. وعلاوة على ذلك، كانت الامدادات البشرية تصل إلى الجبهة، على شكل مجموعات متفرقة.

لقد أسهمت وحدات الاحتياط العسكرية في آسيا الوسطى وسبع اكاديميات عسكرية، و٣٥ كلية عسكرية، و١٩ كلية طيران وغيرها، إسهاماً فعالاً في إعداد الاحتياطات العسكرية في اوزبكستان، للعمل في الجبهة.

نال ١٢٠ الف مقاتل اوزبكي أوسمة وميداليات، تقديراً لشجاعتهم على جبهات القتال. ومنح ٣٠٠ منهم لقب «بطل الاتحاد السوفييتي» الذي كان يعتبر أرفع الألقاب.

وكانت اوزبكستان، أثناء سنوات الحرب قد أرسلت إلى الجبهة ٢٠٩٠ طائرة، ١٧٣٤٢ محركاً للطائرات، ٢٣١٨٠٠٠ قنبلة، ملايين الالغام والقذائف والقنابل اليدوية، وغيرها من الاعتدة.

كما قدمت أوزبكستان للبلاد ٤ ملايين و ٨٠٦ آلاف طن من القطن، وأكثر من ٥٤ ألف طن من الحرير الخام، وأكثر من مليون طن من الحبوب، و٤٨٢ الف طن من البطاطس، و١٥٩ ألف طن من اللحوم، واكثر من ٢٢ الف طن من الصوف، وغيرها من المنتجات الزراعية الكثيرة.

كما أسهمت أوزبكستان في صندوق الدفاع بـ ٤٧٥ مليون ٣٨٧ الف روبل،

السلطة الفعلية في قبضة الحزب الشيوعي.

أما الخطة الخمسية الثالثة (١٩٣٨ ـ ١٩٤٢)، فقد نصت على تطوير كبير ملحوظ للصناعات الثقيلة: تقرر بناء مصنع تشيرتشيك لإنتاج الآزوت، مصانع تكرير النفط في محافظات فرغانة، أنديجان، وسورخانداريا، ومجمع صهر النحاس في الماليق، وغيرها من المشاريع. وفي خلال السنوات الثلاث الأولى من الخطة الخمسية تم تعبيد ١٥٠٠كلم من طرق السيارات.

ورغم ذلك، كانت الخطة قد ركّزت اهتمامها على توسيع نطاق زراعة القطن، التي كانت مشاريع بناء شبكات الري تلعب فيها دوراً مهماً. كانت الدولة تولي عناية كبيرة زيادة حجم إنتاج القطن، باعتبار أنّ اوزبكستان، كانت قد حُوِّلت منذ أمد بعيد، إلى مصدر رئيسي لتزويد مصانع النسيج الروسية بخامات القطن، ولا بد لها من مواصلة أدائها لهذه المهمة. وسعياً لإنجاز ذلك، انشئت قناة فرغانة العظيمة، التي شارك في انجازها حوالي ١٦٠ الف عامل عملوا بصورة يدوية، واستغرقت العملية ٤٥ يوماً، وشقت قناة اصطناعية، طولها ٢٧٠كلم وعرضها ٢٥ ـ ٣٠ م وعمقها ٤ ـ ٥ م.

ونتيجة لاستصلاح مزيد من المساحات الجديدة المزروعة بالقطن، ازداد حجم الانتاج. وقد أدى الاهتمام البالغ بذلك الى تحويل معظم الأراضي إلى مزارع للقطن. وفي الفترة من عام ١٩٣٧ إلى ١٩٤١ ازداد حجم إنتاج القطن في اوزبكستان من ١٥٢٤,٥ الف طن الى ١٦٤٥,٨ الف طن. وبالمقارنة مع عام ١٩٢٨ ازداد الانتاج الاجمالي من القطن الخام أكثر من ثلاث مرات. وكانت الدعاية الرسمية، تؤكد أنّ اوزبكستان سبقت الولايات المتحدة بانتاج القطن، واحتلت الدرجة الاولى في العالم.

وفي عام ١٩٣٩، نالت اوزبكستان أول وسام «وسام لينين»؛ وذلك لقاء ما أحرزته من نجاحات في ميدان انتاج القطن. إلاّ أن شيئاً لم يذكر، عن الآثار السلبية الناجمة عن زيادة حجم انتاج القطن.

كانت الحرب العالمية الثانية قد أحدثت تحوّلاً في تطور أوزبكستان. إذ ظهرت

وكانت الظروف صعبة في اوزبكستان، ابان الحرب، بالنسبة للتطوّر العلمي والثقافي، إذ خفضت الاعتمادات المخصصة للعلوم والثقافة. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى نقطة معينة، ألا وهي انتقال العديد من المؤسسات العلمية من موسكو، ولينينغراد و كييف ومينسك، وأوديسا الى أوزبكستان. فتأسّست في طشقند وحدها ثمانية معاهد تابعة لاكاديمية العلوم السوفييتية: معاهد علم التربة، الزلازل، تاريخ الثقافة المادية، التاريخ، القانون، الاقتصاد العالمي والسياسة، الادب العالمي، مرصد بولكوفسك. لقد اتاحت هذه المؤسسات كلها، فرصة تأسيس اكاديمية العلوم الاوزبكية، التي احتفل بافتتاحها في ٤ نوفمبر ١٩٤٣. وحريّ بالذكر، أنه في فترة الافتتاح، كانت قد تكونت في اوزبكستان قاعدة متطورة للابحاث العلمية، ضمت تسعة عشر معهداً للابحاث العلمية، وعشرات المؤسسات والمتاحف العلمية.

من البديهي، أن محور اهتمام هيئة الاكاديمية، آنذاك، كان القضايا الملحة المتعلقة باحتياجات الجبهة الحربية. كما بوشر باعمال واسعة النطاق للتنقيب عن الحديد والنفط والفحم والغاز وغيرها. وقبل ذلك، أي في عام ١٩٤١، كان قد عقد اجتماع آسيا الوسطى للتنقيب عن الذهب، إلا ان عملية التنقيب ازدادت سرعة بعد تأسيس الاكاديمية.

وصادقت الدورة الثامنة لمجلس السوفييت الاعلى الاوزبكي، التي جرت خلال الفترة من ٣٠ أغسطس ـ ٢ سبتمبر ١٩٤٦، على الخطة الخمسية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٠م) للنهوض بالاقتصاد الوطني الاوزبكي وتطويره، وقد بوشر بتحويل الاقتصاد الاوزبكي نحو الاهداف السلمية، وارتفع الحجم الاجمالي للمنتجات الصناعية خلال الفترة من ١٩٤٦ ـ ١٩٥٠ بنسبة ٧١٪، في حين وصل الثقل النوعي للصناعة في عام ١٩٥٠ الى ٧٤,٢٪. لكن عملية اعادة البناء الاقتصادي لم تكن سهلة، اذ إن الخسائر البشرية الفادحة إبّان الحرب، أحدثت نقصا كبيراً في الأيدي العاملة. ويكفي القول إن اوزبكستان خسرت في الحرب ٣٠٠ الف من الايدي العاملة؛ ولكن رغم ذلك، استمر نمو الصناعة بوتائر سريعة في فترة الخمسينات ايضاً. وإذا كان عدد الايدي العاملة في صناعة اوزبكستان يعادل

وأسهُمِ قروض حكومية تعادل قيمتها ٣ مليارات و٦٦٩ مليون روبل، ومجوهرات وحلي تعادل قيمتها ٢٢,٤ مليون روبل، وحوالي ٥٦ كلغ من المعادن الثمينة وغيرها.

في الايام الحرجة التي عانتها مدينة لينينغراد اثناء الحصار، أرسل الأوزبك مدّخراتهم والمواد الغذائية الموجودة لديهم، إلى المدافعين عن المدينة البطلة. فمثلاً، في ١٧ ابريل ١٩٤٢ أرسل إلى لينينغراد ٥٥ عربة قطار، تحتوي على مواد غذائية وحاجات أخر ى.

وخلال فترة وجيزة (قبيل الاول من سبتمبر ١٩٤١) افتتح في اوزبكستان ٥٦ مستشفى عسكرياً، تتّسع لـ ١٦٩٥٩ سريراً. وفي العام١٩٤٢ ارتفع عدد المستشفيات في اوزبكستان إلى ١١٣ مستشفى، تتسع لـ ٣٩١٤٠ سريراً.

في سني الحرب نقل من المناطق الغربية والمركزية للبلاد ٩٠ مصنعاً ومعملاً، وأسست على قاعدتها مصانع ضخمة، معظمها لصناعة الطائرات والمحركات والآلات. لقد أسهمت متطلبات الجبهة في تسريع تشغيل العديد من المشاريع الصناعية الضخمة، ومن ضمنها ٦ محطات كهربائية ضخمة، و١٤ مصنعاً عملاقاً، لصناعة الآليات ومعالجة المعادن، وغيرها من المؤسسات الكثيرة. وبشكل عام، ازداد عدد المصانع الأساسية في أوزبكستان خلال الفترة ما بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥، حوالي الضعفين.

وفي اثناء الحرب الوطنية العظمى استقبلت اوزبكستان حوالى ٢٠٠ ألف طفل، ممّن تشردوا وتيتّموا، وعشرات الآلاف من المهجرين ومعوّقي الحرب. وقامت اسرة شاه احمد شاه محمودوف وحدها بإيواء ١٤ طفلاً وتربيتهم، وهؤلاء ينتمون إلى قوميات مختلفة.

انّ الحقائق التي أوردناها، تظهر مدى القسط الكبير الذي ساهمت به اوزبكستان وشعبها من أجل انتصار الاتحاد السوفييتي على المانيا الفاشية، وعلى جبهات الحرب العالمية الثانية الأخرى.

السوفييتي كان مصدره سيبيريا والأرال.

كما أنشئت صناعة كيماوية ضخمة، أتاحت زيادة المنتجات الكيماوية السنوية بنسبة ٢٠٪. ومن ثم أصبحت ميتالورجيا المعادن غير الحديدية من الصناعات المستقبلية، وتضاعف إنتاجها اكثر من ٦ مرات. كذلك تضاعف حجم استخراج الذهب. إلا ان حجم إنتاج الذهب الاوزبكي، كان يتم بإشراف مباشر من موسكو، وفي غاية السرية، ولا يعرف حجمه الدقيق، حتى كبار مسؤولي اوزبكستان. وظل الامر على هذا النحو، حتى نهاية الثمانينات.

كان تطور الانتاج الزراعي المطّرد إلى ازدياد مردود الكولخوزات والسوفخوزات بنسبة ٧٤٪ في حين لم ترتفع أجرة العامل إلاّ بنسبة ١,٣ مرة.

كانت فترة النصف الثاني من الستينات فترة عصيبة جداً بالنسبة لأوزبكستان؛ اذ تعرضت طشقند، في ٢٦ ابريل ١٩٦٦م، إلى هزة أرضية عنيفة، ألحقت خسائر مادية فادحة بالمدينة. آنذاك اتخذ مجلس الوزراء السوفييتي قراراً خاصاً لمساعدة المدينة المنكوبة، وخصص مبلغاً إضافياً (٧٢ مليون روبل) لميزانية اوزبكستان لعام ١٩٦٦م، كما أُسِّس صندوق خاص لمساعدة طشقند جُمع فيه عام ١٩٦٦م حوالي تسعة ملايين روبل. وقدم الى طشقند ما يربو على ٣٠ الف من البنّائين جاؤوا من مختلف انحاء الاتحاد السوفييتي، وقاموا ببناء ١٥٦ مسكناً مساحتها الإجمالية١٠٧٩٧م٢.

ما من شك في أنّ اعادة اعمار طشقند بعد الزلزال المدمّر، كانت من أسطع صفحات اوزبكستان التاريخية، التي ظلت عالقة في ذاكرة الشعب الاوزبكي، واصبحت دليلاً فعلياً ساطعاً على مدى أهمية وفعالية التعاون والتعاضد بين شعوب الإتحاد السوفييتي سابقاً. ولكن من الآثار الاجتماعية الملحوظة التي تركتها الهزة الأرضية في عام ١٩٦٦، قدوم عدد كبير من السكان من أنحاء الاتحاد السوفييتي كافة، ليستقروا في طشقند، وليصبحوا من سُكانها الدائمين.

١٢٩٣٠٠، فقد ارتفع هذا العدد عام ١٩٥٨ الى ٢٧٨٠٠. إلاّ أنّ المقام الاول هنا، كانت تحتله المصانع المختصة في المعالجة الاولية للمحاصيل الزراعية. ففي العام ١٩٥٨، كانت الحصص المستحقة على اوزبكستان تساوي ٦٤,٦٪ من الحجم العام المتوجب على عموم الاتحاد السوفييتي، من الياف القطن، و٧٢٪ من المغزولات، وغيرها.

بعد الحرب، وفي ميدان التطوير الزراعي لاوزبكستان، تركز الاهتمام، بصورة رئيسة، مرة أخرى على توسيع مزارع القطن وزيادة حجم انتاجه، وادت هذه السياسة الى تحويل اوزبكستان الى شبه مزرعة للقطن. وكان من أهم المراحل الحاسمة لهذه العملية، استصلاحُ السهوب الاوزبكية القاحلة، حيث استصلح ٩٠ الف هكتار، خلال الفترة ما بين ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩م، وتحوّلت هذه المساحات الجديدة المروية اصطناعياً، والى مزارع قطن جديدة.

في العام ١٩٥٢م، انتجت اوزبكستان ٢٣٦٧٠ الف طن من القطن؛ إلا أن هذه الكمية، كانت أقل من الحجم الذي حددته الخطة الخمسية الخامسة، لتطوير الاقتصاد الوطني. وراحت تصدر تباعاً القرارات الحزبية الحكومية، المطالبة بزيادة انتاج الياف القطن ومضاعفته على حساب المحاصيل الزراعية الأخرى. حتى اصبح القطن، الموضوع الاساسي، ليس في الميدان الاقتصادي فحسب، بل في الحياة الاجتماعية والسياسية في اوزبكستان.

وفي المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الاوزبكي، المنعقد في شهر يناير ١٩٥٩م، جرى بحث مشروع قرار الخطة الخمسية السابعة، لتطوير الاقتصاد الوطني الاوزبكي (١٩٦١ ـ ١٩٦٥م). وخلال هذه الأعوام، تم توظيف ٧٦١٧ مليون روبل في الإقتصاد الوطني. امتازت هذه المرحلة، بازدياد حجم الانتاج الصناعي الذي تضاعف مرة ونصف المرة. وطرأت تغيّرات ملحوظة على صناعة الوقود. ويمكننا القول إنّ صناعة الغاز أعيدت مجدداً، وبلغ الحجم العام لانتاج الغاز والنفط ٩٠٪ من الحجم الاجمالي للانتاج الصناعي، إلا أن معظم متطلبات الاتحاد

١٩٧٧، الذي كان الاول من نوعه في آسيا الوسطى. أما أهم احداث تلك الفترة في المجال السياسي، فهو تبني الدستور الاوزبكي الجديد في عام ١٩٧٨.

كانت الثمانينات مرحلة مفعمة بالتناقضات الاجتماعية السياسية. إذ تركت وفاة ل. إ. بريجنيف، والصراعات السياسية على السلطة في الاتحاد السوفييتي، آثارها المباشرة على الحياة السياسية في أوزبكستان، وازدادت الاوضاع حدّة، بعد وفاة شرف رشيدوف (السكرتير الاول للحزب الشيوعي الاوزبكي) في شهر نوفمبر عام ١٩٨٣. وفي اواسط ثمانينات ق ٢٠م، أثيرت ضجة كبيرة عرفت بضجة قطن اوزبكستان.

وبناء على جهود المركز السابق، تضرّر عدد كبير من الناس الأبرياء من جراء هذه الضجة المصطنعة، في حين قامت موسكو بمكافأة رجال التحقيق الذين ارسلتهم إلى أوزبكستان، للتحقيق في قضية القطن... وأدى ذلك كله الى اضطراب وقلق شديدين في المجتمع، ما أثّر تأثيراً سلبياً في الحياة الاجتماعية السياسية.

أما القادة الاوزبك الذين خلفوا رشيدوف، فأظهروا أنفسهم رجالاً عديمي الارادة، لا رأي لهم فيما يجري في أوزبكستان. وقد استمر الوضع على هذا النحو، حتى بعد إعلان سياسة البيريسترويكا (إعادة البناء) لميخائيل غورباتشيف في شهر ابريل ١٩٨٥، وحتى مجيء الزعيم السياسي الجديد الأوزبكي إسلام كريموف، إلى السلطة عام ١٩٨٩م.

جرت العادة، في الفترة الأخيرة، وصف سبعينات ق ٢٠م بأنها فترة الركود الاجتماعي الاقتصادي والسياسي، في الاتحاد السوفييتي السابق. ولكن رغم ذلك وبحسب الاحصائيات السوفييتية، لم يرتفع دخل أوزبكستان خلال الخطة الخمسية التاسعة (١٩٧١ ـ ١٩٧٥) إلا بنسبة ٣٥٪ لا أكثر. وفي عام ١٩٧٥، كان حجم الدخل الوطني يعادل ٨,٧ مليارات روبل؛ وتجلت في أوزبكستان، سلبيات الاتحاد السوفييتي السابق الاجتماعية الاقتصادية كلّها.

أمّا الميزة الخاصّة (بالمقارنة مع الجمهوريات الأخرى) للتطوّر الاجتماعي الاقتصادي في السبعينات، فظلّت منحصرة في تركيز الاهتمام على زراعة القطن، وتحسين مكننة الزراعة، وبالدرجة الاولى زراعة القطن، اذ استلم القطاع الزراعي في اوزبكستان، خلال الفترة من عام ١٩٧١ ـ ١٩٧٥، ٨٦,٧ الف جرار زراعي، واكثر من ٢٠ الف حالجة قطن، وحوالي ٢٨ الف شاحنة. وازداد إنتاج القطن الخام، ليجاوز الخمسة ملايين. إلاّ أنّ ذلك، جرى على حساب الاستغلال القاسي، للموارد الطبيعية و البشرية في اوزبكستان. وازدادت الامكانيات والظروف، التي تساعد على ظهور العديد من الظواهر السلبية، اجتماعياً وبيئيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً. وأدّى الضغط المستمر للمركز، الذي ما فتئ يطالب بزيادة إنتاج القطن مهما كان الثمن، الى تحول العبارة التي كانت رائجة في أوزبكستان: «القطن ـ رمز اعتزاز أوزبكستان» إلى: «القطن ـ مصيبة اوزبكستان العامة». وكان ذلك يتطلب عمل السكان البالغين جميعاً، ويستهلك الكثير من الموارد الطبيعية والمائية. إلاّ أن الملايين المتزايدة من أطنان القطن، لم تؤدِّ الى تحسين الأوضاع المادية والمعيشية في الأرياف، ما ترك انطباعاً سيئاً في وعي الجماهير، وازدياداً في الاستياء، والسخط الخفيّ على سياسة القيادة السوفييتية العليا، إزاء اوزبكستان وشعبها.

امتاز النصف الثاني من سبعينات ق ٢٠، بحصول تقدم في ميدان الصناعة، فازداد حجم الانتاج الصناعي في عام ١٩٧٩م بنسبة ٢٠٪، بالمقارنة مع ما كان عليه في عام ١٩٧٥م. ومن الأحداث المهمة في تلك الفترة، افتتاح مترو طشقند في عام